www.liilas.com

CORGI

Barbara Cartland

Never Laugh At Love

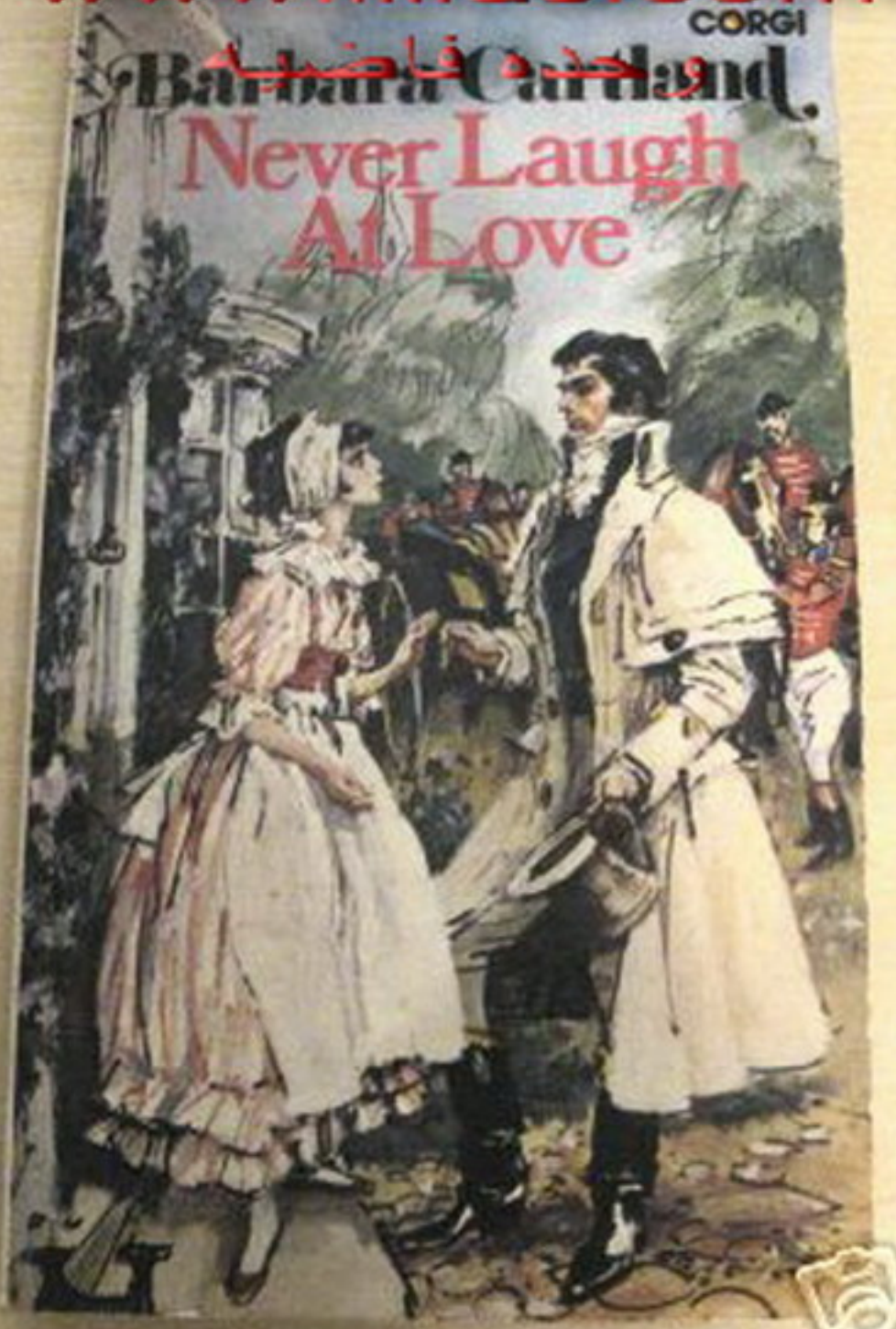

وحده فاضيه
www.liilas.com

لا تضحك من الحب

لقد اقترفت أنتيا فورتنديل أكبر الأخطاء حماقة في حياتها.

صحيح أنها كانت بحاجة إلى المال لتخرج والدتها وشقيقاتها الثلاث من حياتهن الفقيرة البائسة، وصحيح أن رسومها الكاريكاتورية الجيدة والتي وصفت بها المجتمع اللندني قد لاقت نجاحاً ساحقاً، وجعلت إحدى الصحف تدفع لها عشرة جنيهات نقداً ثمناً لكل صورة.

ولكن أن تسلم صورة كاريكاتورية من رسمها تمثل صديقة والدتها ديلفين المتزوجة مع صديقها غارت اكزمينستر، وذلك للنشر... فما الذي كانت انتينا تفكر فيه حقاً، عند ذلك؟ وها هو الآن زوج ديلفين الذي اشتدّ غضبه يهدد بطلاق زوجته.

لبنان: ٣٠٠٠ ل.ل - سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١,٥ دينار - المغرب: ١درهم مغربي - سلطنة عمان ١ ريال.

www.liilas.com

وحده فاضيه

الفصل الأول

«لقد وصلت! لقد وصلت!»

واندفعت كلو إلى غرفة الدرس حيث كانت شقيقاتها جالسات حول المنضدة الكبيرة في وسط الغرفة، وكررت قائلة: «لقد وصلت.»

فسألتها تايس: «الرسالة؟»

أجابت كلو: «وهل ثمة غيرها؟ لقد كنت واثقة عندما رأيت عربة البريد تدخل من البوابة، من أن شيئاً جيداً سيحدث.»

فسألتها أنتيا: «وكيف علمت بأنها رسالة من صديقتك؟»

قالت ذلك بلهجة أكثر هدوءاً ولكن السعادة كانت واضحة في عينيها.

وكان جواب كلو أن رفعت الرسالة بيدها عالياً ما تمكنت معه الفتيات من رؤية الورق الغالي الثمن الذي كتبت عليه الرسالة، معنونة إلى أمهن بخط جميل.

قالت تايس: «لقد أجابت بسرعة، لم نكن نتوقع جواباً منها قبل نهاية هذا الأسبوع على الأقل.»

فقالت كلو: «إنني واثقة من أن جوابها سيكون نعم، آه يا انتيا... فكري في مبلغ روعة هذا الأمر.»

وسألت فيب: «هل أذهب وأخبر أمي؟»

كانت الأصغر بين أخواتها، فهي فقط في العاشرة من عمرها، وكانت كلو في السادسة عشرة وتايس أكبر منها بعام واحد. والاثنتان كانتا تشبهان والدتهما.

قالت أنتيا بسرعة: «كلا، لا يمكنكما أن تزعجا الأم.»

فسألت كلو: «ولما لا؟»

«لأنها مستغرقة في التأملات.»

فهتفت كلو: «مرة أخرى؟ لا أظن بإمكاننا إزعاجها.»

نظرت إلى انتيا متسائلة وهي تقول هذا وكأنها ترجو أن تنقض ما تقول، ولكن هذه أجابت بلهجة حازمة: «كلا بالطبع. إنكن تعرفن كم تنزعج أمنا من أن يقاطعها أحد أثناء الكتابة فيقطع عليها تسلسل أفكارها.»

وضعت كلو الرسالة على رف المدفأة، قائلة: «أظنني سأمل من الانتظار إذا لم تفتح أمي الرسالة بسرعة.»

أجابت أنتيا: «الساعة هي الحادية عشرة فقط. إن علينا الانتظار حتى يحين وقت الغداء.»

فقالت تايس متذمرة: «هل كان لأمي أن تستغرق في الكتابة والتأملات هذا اليوم بالذات؟»

أجابت أنتيا: «انها ومنذ أيام تفكر في قصيدة. إنني أعرف ذلك كلما رأيت عينيها ساهمتين.»

قالت كلو: «لو كانت أشعارها جيدة، لكان بإمكاننا بيعها.»

فقالت أنتيا: «لا يمكننا ذلك بالطبع.»

سألتها كلو: «لماذا لا؟ يقولون إن السيد بيرون جمع ثروة كاملة من وراء أشعاره، وأنا واثقة من أن أشعار أمي بنفس مستوى أشعاره تقريباً.»

قالت أنتيا: «إنني واثقة من أن فكرة المتاجرة بفنها ستصدمها، فإياك أن تعرضي عليها هذا الأمر. إنه يسبب لها القلق.»

قالت تايس بلهجة عملية: «إن الحاجة إلى النقود هي التي تسبب القلق، إفرضي أن صديقتك قبلت بأن تستضيفك في لندن، يا أنتيا، فماذا ستلبسين هناك؟»

أجابت أنتيا: «لقد صنعت لنفسي ثوباً جديداً الأسبوع الماضي.»

قالت تايس: «هذا لن يكفي. فمجلة صحيفة السيدات تقول إن الفتاة التي يحتفل بتقديمها إلى المجتمع تحتاج إلى عشرة أثواب على الأقل.»

أجابت أنتيا: «إذا أنا سافرت، وهذا ما أشك فيه، فإنه لن يبقى من فصل الاحتفالات هذه سوى شهر واحد لأن الأمير سيذهب إلى برايتون في أول حزيران (يونيو).»

ردت عليها تايس: «حتى وإن كان شهراً واحداً، فإن ثوباً واحداً لا يكفي.»

كانت تايس، في ربيعها السابع عشر، تهتم جداً بالملابس. فهي الوحيدة من بين أخواتها التي كانت تكره تلك الأقمشة الرخيصة التي يصنعن منها ملابسهن دون أن يكون بمقدورهن تزيينها وتطريزها حسب الزي الشائع كما تقول صحيفة السيدات.»

وفكرت أنتيا في أن مظهرها سيدعو إلى الرثاء فعلاً إذا هي ذهبت إلى لندن وانخرطت في المجتمع الراقي، كما تقول أمها حيث صديقتها الكونتس شيلدون تحتل مركزاً هاماً.

وفي الواقع، لم تعتقد أنتيا لحظة واحدة في أن الفكرة المفاجئة التي طرأت على ذهن أمها لإرسالها إلى لندن لحضور فترة احتفالات تقديم الفتيات إلى المجتمع، لم تكن من وحي الخيال.

ذلك أن السيدة فورتنديل، والدتها، لم تكن تدرك وهي المرأة الخيالية الشاردة الفكر على الدوام كما كان يقول عنها زوجها الراحل، أن ابنتها الكبرى أنتيا ذات التسعة عشر عاماً لا بد لها من حياة أفضل من تلك التي تعيشها في ذلك المنزل الفقير الذي يعيشون فيه في تلك القرية المنعزلة.

وكان الذي نبهها إلى مسؤولياتها تلك هو عمدة القرية وليس احد سواه.

فقد تطوّع وبشهامة بعد وفاة السير والكوت فورتنديل بأن يعطي الفتيات الأصغر سناً، تايس وكلو وفيب، دروساً في التاريخ والعلوم واللغة اللاتينية.

وقد تعلمن اللغة الفرنسية من امرأة فرنسية كانت تعلّم فيما مضى لغة قومها في الكلية، وعندما تقاعدت سكنت في القرية.

كانت اللايدي فورتنديل تدفع لها أجراً ضئيلاً، ولكن المعلمة الفرنسية كانت تسعد بتعليمهن أكثر مما كانت مع تلامذتها، وذلك بسبب شعورها بالوحدة في منزلها وتشوقها إلى من تتحدث إليه.

كان العمدة قد قام بزيارة السيدة فورتنديل ليطلعها على مدى تقدم ابنتها فيب في اللغة اللاتينية، وعندما نهض مودعاً قال لها: «كم أنت محظوظة يا سيدتي لأنه لديك مثل هذه البنات، ولا شك أنّ في اليوم الذي يتزوجن فيه ويتركن المنزل ستشعرين بالحزن، وطبعاً هذا ما سيكون بالنسبة إلى الآنسة أنتيا في أي وقت.»

هتفت السيدة فورتنديل: «ماذا؟ أنتيا تتزوج؟»

أجاب العمدة: «أظنها في التاسعة عشرة من عمرها،

وهذا هو السن الذي تبدأ فيه الفتاة في إنشاء بيت وأسرة خاصة بها.»

عند ذلك وافقته السيدة على قوله هذا.

وعندما خرج، نادت ابنتها أنتيا لتقول لها بلهجة من يلوم نفسه: «يا حبيبتي، ما الذي جعلني غائبة الذهن بهذا الشكل؟ لقد نسيت انك أصبحت في التاسعة عشرة ما أشدّ غفلتي إذ لم أفكر في القيام بشيء بهذا الشأن.»

فأجابت أنتيا: «أي شأن تعنين، يا أمي؟»

أجابت الأم: «شأن حفلة تقديمك إلى المجتمع.»

«ولكن هل هذا ممكن يا أمي؟»

فقالت الأم: «هذا ما كنا ننويه أنا ووالدك. ولكن العجز والحزن اللذين تملكاني لم يسمحا لي بالتفكير في كم بلغت من العمر.»

فقالت أنتيا ضاحكة: «إنني كبيرة السن جداً، يا أمي، وقريباً جداً ستتساقط أسناني وسيشيب شعري.»

قالت الأم باستنكار: «إنني جادة في كلامي، يا أنتيا. صحيح أننا فقراء، ولكن عائلة فورتنديل محترمة جداً في يوركشاير ومنذ مئات السنين. كما أن أسرتي أنا جاءت إلى انكلترا مع وليام الفاتح.»

فقالت أنتيا: «نعم، أعلم ذلك يا أمي، ولكن كوننا من عائلة نبيلة، فهذا لن يفي ديوننا، كما أنه لن يساعد على دفع تكاليف حفلة تقديمي للمجتمع في لندن.»

منذ وفاة والدها، استلمت أنتيا إدارة المنزل ودفع الفواتير، لذلك كانت تعلم أكثر من غيرها قلة ما يملكون، ومبلغ ما يتوجب عليها من الحرص في إنفاق كل قرش.

قالت الأم: «أنا لم أقل إن علينا دفع نفقات إقامتك في لندن، فأنا لست إلى هذا الحد من الغباء.»

«ومن غيرنا سيقوم بذلك؟ إنك تعلمين أن أقاربنا قلّة.»

فقالت الأم بغضب مفاجيء: «انني لا اطلب معونة من أقرباء والدك حتى ولو كنا على وشك الموت جوعاً، انهم لم يحبونني يوماً، لأنهم أرادوا لوالدك الزواج من امرأة ثرية حتى انهم لم يسامحوه على زواجه مني.»

فقالت أنتيا: «ذلك لأنه احبك، يا أمي. وهذا غير مستغرب، فأنت أجمل امرأة رأيتها في حياتي.»

ابتسمت السيدة فورتنديل وقالت: «وأنت تشبهين والدك يا حبيبتي في كل شيء.»

كان هذا صحيحاً تماماً، ومنذ كانت طفلة في المهد، لم يكن يراها أحد إلا ويبتسم لها، كما كانت لها ضحكة تحمل الآخرين على الضحك معها.

قالت لأمها: «إنك تبالغين في إطرائي، يا أمي، ولكن استمري فأنا أحب الإطراء.»

فقالت أمها بحدة: «وهذا عليك ألا تنتظريه من أمك، كم كنت أنانية مهملة إذ لم أفكر في هذا من قبل.»

فسألتها أنتيا: «تفكرين في ماذا يا أمي؟»

«في الكتابة إلى صديقتي ديلفين كونتس شيلدون.»

جلست الأم، وهي تشعر بالندم البالغ لإهمالها هذا، وبدأت في كتابة رسالة إلى الكونتس شيلدون تناشدها بصداقتهما القديمة إسداء معروف لها وذلك بدعوة أنتيا إلى لندن واستضافتها في بيتها.

قالت في رسالتها: «لقد كانت إبنة رائعة لي منذ وفاة

والدها الحبيب، حتى انني، في غمرة الحزن والتعاسة حينذاك، نسيت هذه السنة، حيث أن مدة الحداد قد انتهت، يجب تقديمها إلى المجتمع، إنني أتذكر دوماً حفلة تقديمك يا ديلفين، ولهذا فأنا أرجوك أن تتذكري أنتيا، التي تعتبرينها ابنتك، وتستضيفيها عندك مدة أسابيع قليلة فقط لتتعرف على مجتمع لندن.

ومضت تتذكر مقدار سرور ديلفين عندما طلبت منها السيدة فورتنديل، وهي في سن الخامسة عشرة، أن تساعدها في تربية أول أبنائها.

كان والدا ديلفين يعيشان في اسكس التي تبعد ميلاً واحداً عن موطن السيدة فورتنديل. وكانت والدتاهما صديقتين حميمتين كما كان والداهما شريكين في صيد الثعالب.

فمنذ ان كانت ديلفين في الخامسة عشرة، كانت تربطها صداقة شديدة بكريستوبيل التي تكبرها بثلاث سنوات والتي كانت تزوجت السيد والكوت فورتنديل بعد ان تركت الدراسة.

وكان السيد والكوت قد اعجب بكريستوبيل منذ أول مرة رآها فيها في حفلة تقديمها إلى المجتمع.

وفي نهاية السنة كانا متزوجين، وولدت أنتيا عندما بلغت والدتها التاسعة عشرة وعادت إلى منزل والديها لتمضية فترة الولادة الأولى هذه بينهما.

وكانت ديلفين زائرتها اليومية، وعندما ولدت ابنتها اظهرت محبتها للطفلة بقدر محبة الأم لها.

لكن وبعد ذلك، لم يتقابلا إلا فيما ندر، فقد استقر السيد والكوت في أملاك والده في يوركشاير لكن إيجارات أملاكه التي رفعها لم تكن تفي بالنفقات الضرورية.

وتدريجياً، مع مرور السنوات والضائقات المالية التي نشأت أثناء الحرب ضد نابوليون، تضاءل دخلهم إلى درجة أنه، حين قتل في معركة واترلو، لم يترك لهم سوى القليل.

لقد قالت السيدة فورتنديل لزوجها محتجة حين وجدته يتطوع للذهاب إلى الحرب: «إنك كبير السن لأن تتطوّع، ثم كيف يمكنك أن تتركني؟»

أجاب: «كيف يمكنني ان اجلس هنا وأشيخ، تاركاً أصدقائي يحاربون لأجلي.»

وكان قد استمع إلى توسلاتها في البداية إلى ما بعد معركة طرف الغار عندما تأكد الجميع من قرب نهاية الحرب.

فقال لها عندئذ: «عليّ أن أشترك في الحرب فقد طال تهربي من المسؤولية.»

انضم إلى القائد ويلنغتون للعمل في خدمته انما ولحسن حظ زوجته، لم يرسل إلى أوروبا. ولكن عندما تقدم الجيش في النهاية إلى بروكسل للتصفية النهائية مع نابوليون، كان السيد والكوت في سلاح الفرسان.

وعندما علمت أنتيا بمقتله، أدركت أنه لم يكن من فرصة لنجاته بعد الهجوم العنيف المفاجيء الذي قام به سلاح الفرسان في بداية المعركة والذي كبّدهم ألفين وخمسمائة قتيل.

ثم قالت لأمها المحطمة القلب تعزيها: «إنها الطريقة التي كان يتمناها لموته، يا أماه.»

مع انها كانت تدرك جيداً، أن ليس ثمة من عزاء لهنّ.

وقد اضطروا، بعد ذلك إلى ترك منزلهم الذي عاشوا فيه طوال حياتهم، كما ان الأملاك الأخرى كانت في حالة سيئة،

ما ذهب معه معظم المبلغ الذي كن تلقينه ثمناً لها، سداد لديون الوالد الراحل. ولكن على كل حال، بقي منه ما يكفي لشراء المنزل الذي يعشن فيه الآن، وكذلك استثماراً بسيطاً يعود عليهن بإيراد سنوي يؤمن لهن العيش.

لم تفكر أنتيا بالقيام بأي عمل آخر عدا العناية بوالدتها وأخواتها.

وعندما أرسلت الرسالة إلى الكونتس ديلفين شيلدون، أخذت أنتيا تتصوّر نفسها في لندن حيث قد تتعرف على الزوج المناسب والثري أيضاً بحيث تستطيع مساعدة شقيقاتها.

والآن، بعد أن استقرت هذه الفكرة في رأسها، فقد أدركت انه من الضروري بالنسبة لتايس، أن تخرج إلى المجتمع في السنة التالية هي الاخرى.

ستكون تايس في ذلك الوقت، أكبر سناً من معظم المقدّمات إلى المجتمع وبعدها ستأتي كلو ومن ثم فيب. ولهذا عليها، هي أنيتا أن تعثر لنفسها على زوج غني يمكنها من القيام بهذه الواجبات نحو شقيقاتها وذلك بإقامة حفلات تقديمهن إلى المجتمع.

ولكنها كانت تعلم جيداً أن أمها لم تر الكونتيس ديلفين شيلدون منذ أكثر من ثماني سنوات.

والناس تتغير وتنقطع العلاقات بينهم وبين اصدقائهم القدماء، وكما كانت انتيا تعلم جيداً، فهم لا يحبون أن يتحملوا أعباء بنات الآخرين.

لقد حسبت دون صعوبة أن الكونتس الآن في الرابعة والثلاثين. ومع أنها لم تكن تعلم شيئاً عن المجتمعات، فقد

فكرت في أن الكونتس أصغر سناً من أن تكون مرافقة حارسة لها.

وعلى كل حال فقد ارسلت الرسالة إلى لندن، ولكن أنتيا كانت واثقة من أن استجابة الكونتس لرجاء والدتها لن يعدو الواحد في المائة.

قالت تايس وهي تجلس إلى طاولة الدرس: «لا أستطيع أن أنتظر ساعة ونصف حتى تفتح أمي الرسالة.»

فصرخت كلو: «آه، نعم، فلنفعل نحن ذلك.»

قالت أنتيا بلهجة آلية: «كلا، أبداً إنكما تعلمان كم في ذلك سوء للأدب والأخلاق كما أنه لا يتفق مع شخصية المرأة العصرية.»

فقالت تايس: «إنني، ومما أقرأه عن النساء العصريات، أدركت أنهن يقمن بكل ما يتنافى مع شخصية السيدة المحترمة. ففي الرواية التي أنهيتها لتوّي، كانت البطلة تنصت السمع على الدوام من وراء الباب.»

قالت أنتيا: «إن الخادمات هن اللواتي يفعلن هذا وليست البطلات، لا أدري من أين تأتين بهذه الكتب. وطبعاً ليس من مكتبة والدنا... ولا من مكتبة العمدة.»

أخذت تايس تضحك، وبدت طيبة للغاية وهي تفعل ذلك.

«لقد استعرت تلك الرواية من إيلين.»

«إيلين؟»

ولما لم تجب تايس، قالت أنتيا: «أتعنين إيلين التي تعمل في ديكنداك؟»

فقالت تايس معترفة: «لديها صديقة تأتيها بالروايات بانتظام.»

قالت أنتيا بضيق: «آه، يا تايس، كيف تقومين بعمل كهذا؟

إنني واثقة من أن والدتنا ستنزعج إذا هي علمت بأنك صديقة لإيلين رغم كونها امرأة في غاية اللطف.»

وشعرت بضيق بالغ من ان تايس تعقد صداقة مع عاملة في فندق.

في الشهر الماضي، كانت تايس قد أتمت السابعة عشرة من عمرها.

وفكرت أنتيا أن شقيقتها هي من ينبغي السفر إلى لندن وليس هي. وتساءلت عما إذا كانت صديقة والدتها، في حال موافقتها على هذه الدعوة، ستقبل تايس بدلاً منها.

وسألت كلو: «ماذا تكتب أمي الآن؟»

أجابت تايس: «أظنها تمرّ بمرحلة تاريخية.»

قالت كلو: «من حسن الحظ أنها لم تمرّ بهذه المرحلة قبل أن نولد، وإلا لكانت أسماؤنا مثل جيزيبيل أو ماجدولين والتي هي أسماء تاريخية.»

فضحكن جميعاً.

وتابعت كلو بيأس: «إن تلك الأسماء ليست أسوأ من اسمي. لماذا أطلقت عليّ أمي هذا الاسم؟»

قالت تايس: «لا أظن اسمي أجمل من اسمك. ليس هناك من يستطيع لفظ اسمي بشكل صحيح.»

فقالت فيب: «فكري كم هو شاعري.»

ثم قفزت واقفة وأخذت تتلو بلهجة مسرحية مقطعاً من قصيدة:

وتايس بين الحضور
تطل وكأنها باقة زهور
بالصبا والتألق تدور

فصرخت تايس: «اخرسي.» والتقطت كتاباً من على المنضدة ثم قذفتها به.

كن جميعاً، باستثناء أنتيا، يكرهن أسماءهن. إنها تقرأ قصيدة الشاعر روبرت هيريك الغنائية التي يقول فيها: «إلى أنتيا، أين أنتيا.»

ثم تتساءل إن كان من الممكن لهذا أن يتحقق في حياتها.

هل ستجد يوماً رجلا في اخلاق والدها؟ وماذا سيكون شعورها لو حدث هذا؟

وكانت كلو تقول: «لا أدري لماذا لم تختر والدتنا أسماء من رواية الكاتب ويكفيلد. وقد جاء فيها اسماء رائعة.»

قالت فيب: «ليت ابي ما زال حياً، لكنت سألته.»

فقالت أنتيا: «حسناً، والدي لم يعد حياً لكن إياك أن تضايقي أمك بالأسئلة.»

وكانت القاعدة في المنزل أن لا يضايقن الأم. لقد ازداد حبهن لأمهن بعد أن أصبحت مكسورة الجناح، وذلك منذ مقتل زوجها.

لذا كان القرار أن يبعدن عنها كل المتاعب التي لا تستطيع احتمالها، كي لا تأرق في الليالي عندما تعلم بها.

وكانت أنتيا تعلم أن والدتها، حين يصادفها ما يزعج، تتحول إلى نظم الشعر.

كانت، في الواقع، تقوم بذلك قبل وفاة زوجها، ولكنها أصبحت الآن تستغرق في نظم القصائد الطويلة لتقرأها بعد ذلك لبناتها، ومن ثم تهمل أمرها.

وها هي أنتيا الآن تفكر لأول مرة فيما لو أن بالإمكان بيع قصائد والدتها.

ولكنها عادت تحدث نفسها في أنه من غير المحتمل أن يهتم أيّ ناشر بهذه القصائد، بالاضافة، فهذه الفكرة سترعب أمها دون شك.

ولكن ما كن يقرأنه في الصحف هو أن أعمال السيد بيرون الشعرية قد نالت نجاحاً ساحقاً.

ولكنه اضطر بسبب ما، على الرحيل عن الوطن في السنة الماضية، وتوقعت أنتيا أن غيابه، قد يحدّ من رواج كتبه.

وأخذت تتساءل من عساه يهتم بشعر تكتبه سيدة تعيش في غابات يوركشاير، بعد ان كان يستحسن شعر السيد بيرون المتدفق.

قالت: «من المؤسف أن ولا واحدة منا تملك موهبة نافعة صالحة للاستغلال.»

فقالت تايس: «إنني أقوم بتأليف رواية.»

أجابت أنتيا: «نعم، أعلم ذلك، ولكنك ما زلت تكتبين فيها منذ ثلاث سنوات، وحسبما لاحظت لم تكتبي منها سوى خمسة فصول. ولكن عندما تنتهين منها بعد عشرين سنة لا يهم إذا كان الثوب الذي ستشترينه بعد ان تحصلي على ثمنها، قد يكون جيداً أم لا.»

وبظهر منحنٍ ويدين مرتجفتين، أخذت تقول بصوت متهدج: «ساعدوا... العجوز الفقيرة... السيدة الجميلة... التي منحت أجمل... سنوات عمرها... اشتروا مني كتابي... هذا...»

فأخذ الجميع يضحك.

كان تمثيل أنتيا مليئاً بالحيوية، وأدركت أخواتها أنها تمثل شخصية المرأة ريدجويل العجوز، متسوّلة القرية.

فقالت تايس باعتزاز: «إن كتابة الروايات أمر في غاية الصعوبة، ثم إنها تأخذ مني وقتاً طويلاً لأنني لا أحسن التهجئة.»

قالت أنتيا متأملة: «أظنني قد أتمكن من بيع بعض رسومي المائية.»

ضحكت كلو وهي تقول: «آخرة مرة وضعت واحدة منها في سوق القرية، وبقيت هناك. ولم يتمّ بيعها إلا بعد أن ذهبت أنا إلى الحانوت وأخفضت سعرها إلى ثلاثة بنسات، وكان هذا فقط لأن السيدة بريغس التي اشترتها قد أعجبها الإطار.»

تنهدت أنتيا، وقالت: «لقد لاحظت، عندما ذهبت لزيارتها الأسبوع الماضي لأنها كانت مريضة، بأنها أخرجت الصورة من الإطار ووضعت بدلاً منها صورة وردة كان أحد أحفادها قد أرسلها إليها.»

قالت كلو: «يبدو أننا لا نستطيع الربح بهذه الطريقة. إنني دوماً أفكر فيما لو أعطي دروساً في الفروسية لمن يدفع لي.»

سألتها تايس: «ومن سيأتي إليك ليتعلم الفروسية؟ كل من لديه حيوان بأربع قوائم، في القرية، يستطيع ذلك بأي شكل، أما من يبدأ الذهاب إلى الصيد من أفراد الأسر، فلن يأتوا إليك لتعليمهم ذلك.»

تنهدت كلو وقالت: «يا ليتني أملك جواداً جيداً. لم يعد لدينا بعد موت والدي، سوى الجواد دوين العجوز تمتطيه والدتنا عندما تريد الخروج، وهذا نادراً ما يحصل.»

قالت أنتيا: «ليس بإمكاننا اقتناء أفضل منه. ودوين هو

في الثانية عشرة من عمره الآن، ولهذا إياك أن تتعبيه كثيراً، يا كلو. فإذا سقط ميتاً، لن يكون بإمكاننا شراء غيره أبداً.»

رفعت كلو صوتها بالقول: «المال، المال، المال لا أحد يتكلم بغير ذلك في هذا المنزل.»

قالت تايس: «هذا يعيدنا إلى ما سألت أنا عنه في البداية، وهو ما الذي سترتديه أنتيا عندما تسافر إلى لندن؟»

فقالت أنتيا: «إنني سأرتدي الملابس التي عندي بالإضافة إلى الملابس التي عليكن جميعاً أن تخطنها لي.»

فحملقت شقيقاتها فيها بينما تابعت هي تقول: «لقد كنت فكرت في هذا الأمر من باب الاحتياط فيما لو وافقت صديقة والدتنا على استضافتي عندها. إنني واثقة تماماً من أننا ماهرات في استنساخ أزياء من مجلة السيدات، وبهذا سأكون حسنة المظهر.»

قالت كلو بصراحة: «ستبدين وكأنك فأرة ريفية.»

قالت أنتيا: «حسناً... فأرة ريفية... فليكن هذا. ولكنني لن أرفض السفر إلى لندن إذا ما سنحت لي الفرصة لذلك، لأنني أشعر أن وجودي هناك سيكون لمصلحتنا جميعاً.»

سادت لحظة صمت قالت تايس بعدها: «أتعنين... أنك ستعثرين على زوج؟»

«نعم... إذا أمكنني ذلك.»

قالت فيب بصوت باك: «أنا لا أريدك أن تتزوجي، إذا أنت تزوجت يا أنتيا فستتركيننا وترحلين بعيداً. إنني أكره جداً ألا تكوني معنا.»

واندفعت من مكانها إلى أختها تحيط عنقها بذراعيها:

«إننا نحبك جداً يا أنتيا ولا نستطيع أن ندعك تذهبين لتتزوجي من رجل قد لا يحبك كما نحبك نحن.»

قالت أنتيا: «ربما سأتزوج من رجل يتمتع بأخلاق نبيلة يسمح لكنّ جميعاً بالعيش معي. فيعير كلو جياداً تمتطيها ويقيم حفلة تقديم لتايس.»

سألتها تايس: «هل تظنين حقاً أنك ستتزوجين؟»

أجابت أنتيا: «بإمكاني على الأقل المحاولة.»

وعندما رأت وجوه شقيقاتها الجادة وعيونهن المحملقة فيها ابتسمت وقالت: «عندما أذهب إلى لندن، سأعلق حول عنقي لوحة مكتوباً عليها ثلاث فتيات بحاجة إلى العون، المطلوب خاتم الزواج.»

ضحكت الفتيات من جديد، وفي تلك اللحظة فتح الباب ودخلت السيدة فورتنديل.

كانت تسير الهوينا وفي عينيها نظرة شاردة كن يعرفن ان هذا يعني بأنها كانت تفكر كثيراً.

قالت: «أنا بحاجة إلى عونكنّ، يا بنات، لأنني لا أستطيع إكمال قصيدتي.»

قيل الكثير عن احترام بنات السيدة فورتنديل لموهبتها إلى درجة أن واحدة منهنّ لم تأتِ في هذه اللحظة، على ذكر تلك الرسالة الملقاة على رف المدفأة.

وبدلاً من ذلك، ساد بينهن الصمت عندما وقفت والدتهنّ رافعة يدها وهي تتلو إحدى قصائدها.

وعندما انتهت، هتفت أنتيا: «ما أروع هذا يا أماه.»

وقالت تايس: «إنها إحدى أجمل قصائدك.»

قالت السيدة فورتنديل: «ولكنني لا أستطيع إكمالها.»

فقالت أنتيا: «سيأتيك الإلهام فيما بعد. لقد حان الآن وقت الغداء، يا أمي. وقد كنت قادمة إليك لمقاطعتك على كل حال.»

تابعت السيدة فورتنديل قائلة: «لقد جاءني القسم الأول من هذه القصيدة، هذا الصباح بمنتهى السهولة.»

ولكن أنتيا لم تستطع الاحتمال أكثر من ذلك، فقالت لها: «هنالك رسالة يا أمي وصلت منذ أكثر من ساعة.»

اندفعت بهذه الكلمات ما جعل الأم تنظر إليها بحيرة وهي تقول: «رسالة؟ أي رسالة؟»

«رسالة من لندن، يا أمي.»

«من لندن؟ من ديلفين شيلدون. لقد نسيت، أتعنين أنها جواب لرسالتي؟»

«نعم يا أمي.»

وقفزت كلو تتناول الرسالة من على رف المدفأة وتضعها في يد أمها.

فقالت السيدة فورتنديل بدهشة: «لقد جاء الرد سريعاً.»

لم تستطع كلو منع نفسها من القول: «لقد جاءت على جناحي الطير. افتحيها يا أمي. افتحيها وانظري ما مكتوب فيها.»

ففتحت الأم الرسالة بطريقة بدت لبناتها في غاية البطء. ثم ابتدأت تقرأ. ولم تستطع كلو الاحتمال أكثر فقالت: «اقرأيها بصوت عالٍ يا أمي، أرجوك.»

قالت اللايدي: «نعم، بالطبع، لقد نسيت مبلغ اهتمامكن بهذه الرسالة وخصوصاً أنتيا.»

وابتسمت لابنتها الكبرى قبل أن تبدأ بقراءة الرسالة بصوت عالٍ:

كريستوبيل الحبيبة.

لشدّ ما كانت دهشتي وسروري أيضاً وأنا أستلم منك رسالة بعد هذه السنوات الطويلة، لقد كنت دوماً أفكر فيك. لقد شعرت بحزن بالغ عندما سمعت بمقتل زوجك السيد والكوت في واترلو. وهكذا مات كثيرون من رجالنا الشجعان في سبيل أن ينقذوا العالم من ذلك الحاكم نابوليون بونابرت.

وطبعاً، سأكون في غاية السرور إذ أستضيف أنتيا، وهي التي بمثابة إبنتي، في بيتي في لندن.

ومن المؤسف جداً أننا لم نفكر في ذلك قبل الآن حيث أنه لم يبق من فصل حفلات التقديم هذه، الوقت الكافي لتقديمها إلى المجتمع الراقي.

وعلى كل حال، فلديّ إحساس ان باستطاعتي أن أقدم إليها وقتاً سعيداً للغاية ولهذا أرى من الأفضل أن تشرع في السفر في الحال.

ليس بإمكاني أن أرسل جياد زوجي إلى يوركشاير، ولكن إذا كان بإمكانك توصيلها إلى فندق الحصان الأبيض في بلدة إيتون يوم الجمعة المقبل، فإنني سأرتب أمر ارسال من سترعاها تلك الليلة، وعند الصباح تصل عربتنا لتنقلهما معاً إلى لندن.»

أرسل إليك تحياتي القلبية، يا أعز الصديقات، وأنا بغاية الشوق لرؤية ابنتك والتي أتذكر أنها كانت طفلة غاية في الجمال. إنها ستحضر معها ذكريات الأيام السعيدة التي أمضيناها أنت وأنا، معاً منذ سنوات كثيرة. آه يا عزيزتي، ما أسرع مرور الزمن.

صديقتك المخلصة على الدوام

«ديلفين شيلدون.»

أنهت اللايدي فورتنديل قراءة الرسالة، فهتفت كلو بسعادة وهي تهتف قائلة: «لقد وافقت، وافقت ستذهبين إلى لندن.»

نظرت إلى أنتيا ولكن هذه كانت واقفة تنظر إلى والدتها بعينين قلقتين، ثم تقول: «مساء الجمعة. هل تلاحظين يا أمي، ان هذا يعني أن أمامي الغد فقط للاستعداد للسفر؟»

فقالت اللايدي فورتنديل مترددة: «هذا يكفي لحزم أمتعتك.»

فابتدأت أنتيا تقول: «ولكن، يا أمي...»

عند ذلك تلاقت عيناها بعيني تايس، فأدركت أن لا فائدة من الجدل. فهي إذا قالت أن ليس لديها ملابس لائقة، ستشعر والدتها بالحزن.

ثم إنه، حتى لو كان أمامها أسبوع كامل للاستعداد، فهو لن يكفي لتغيير طراز ثيابها لكي تصبح لائقة في المجتمع اللندني.

وحدثت نفسها بأن ليس أمامها سوى أن تقول لصديقة والدتها أن عليها أن تقبلها كما هي.

وكانت والدتها تقول برقة: «هذا كرم لن انساه من ديلفين، كنت واثقة من أنها لن تخيب آمالي. وكما كنت أقول دوماً، صداقة العمر لا تتغيّر.»

• • •

كانت الكونتس ديلفين شيلدون قد ارتدت ملابسها للعشاء وهي تفكر.

كم شعرت باليأس عندما علمت فجأة بأن عليها الرحيل

إلى شيلدون، لا لشيء إلا لأن زوجها قد أصابه الملل من لندن.

فلو لم تصل إليها رسالة اللايدي فورتنديل، لكان عليها أن تمتثل لإرادة زوجها.

لقد كانت في الثامنة عشرة من عمرها فقط حين تزوجت، وبنفس السرعة التي تزوجت بها صديقتها كريستوبيل، ولكن زواجها كان مختلفاً تماماً.

كان الكونت شيلدون، المفرط الثراء وذو المركز الإجتماعي المرموق، أرملا منذ عشر سنوات عندما رأى زوجة المستقبل في صالة مزدحمة في منزل ديفونشاير.

كانت بين عدد من الفتيات المحتفل بتقديمهن إلى المجتمع وذلك في إحدى أفخم الحفلات وأشدها تبذيراً والتي كان يقيمها السيد والسيدة ديفونشاير، داعين إليها كل من هو ذو أهمية في المجتمع الراقي.

لم تكن ديلفين بارزة، بشكل خاص، بين الفتيات الأخريات. لكن شيئاً ما فيها جذب انتباه السيد شيلدون.

ومهما كان السبب، فقد أعجب بهذه الفتاة.

أما ديلفين فقد دهشت لمركزه الاجتماعي وأهميته.

ولكن كان من المستحيل عليها أن ترفض مثل هذا الزواج حتى ولو شاءت ذلك.

وكان سرور والديها بنجاح ابنتهما شيئاً طبيعياً، وهكذا تمّ زواجهما حتى قبل أن تتأكد ما كان يحدث لها.

لم يكن ثمة شك في أنها، في البداية، كانت في غاية السعادة. فالرفاهية التي أحيّاها زوجها بها، والمجتمع الراقي المتألق الذي قدّمها إليه، جعلها تلك الزوجة السعيدة لمدة عشر سنوات على الأقل.

أثناء هذه المدة، انجبت ابنين وابنة واحدة، ومن بعد ذلك ابتدأت تشعر بالملل، ذلك أن زوجها كان قد ابتدأ يكبر في السن كما أنه أخذ يجد في الريف راحة أكبر من تلك التي يجدها في لندن.

وبما أنه من الكبرياء والغرور، بدأ يشعر بالملل من مداومة الحضور إلى قصر كارلتون والذي هو قصر الأمير.

وحيث أنه كان من الحنكة بحيث لم يشأ أن يظهر مله هذا، فقد وجد من الأسهل عليه الاعتكاف في الريف حيث لا مطالب مفروضة عليه.

ولكن ديلفين كانت، بالعكس منه تجد في لندن كل ما يسرها ويهمها.

لكنها كانت، في الواقع تشعر بالرهبة من زوجها، فقد كان يتصف بالعناد الشديد لم تكن هي تستطيع حيال ذلك شيئاً. وقد بدا هذا واضحاً بالنسبة إلى الاختيار بين لندن وقرية شيلدون في الريف. فلم ينفع التضرع أو التمرد في تراجع تصميم السيد شيلدون في هذا الشأن، وكانت ديلفين تعرف ذلك جيداً.

وهكذا، كان إرجاء السفر قبل ساعات من الاستعداد له.

سألتها خادمتها: «هل ستضعين عقدك الزمردي هذه الليلة يا سيدتي؟»

فأجفلت ديلفين. ذلك أنها لطول ما حدقت في صورتها في المرآة، نسيت أين هي وما الذي كانت تقوم به.

وقالت: «نعم يا ماريا، ثم إنني تذكرت أننا سنستقبل فتاة كضيفة عندنا وستصل يوم الجمعة.»

«الجمعة، يا سيدتي؟»

أجابت الكونتس: «نعم، وستنام في الغرفة الخلفية، فهناك ستجد من الهدوء أكثر مما ستجده في تلك التي بجانب غرفتي.»

«ولكنها غرفة صغيرة جداً، يا سيدتي.»

قالت الكونتس بغطرسة: «هذا غير مهم، إن أهل الريف غير معتادين على ضجة لندن، والغرفة التي بجانب غرفتي تطل على الشارع كما تعلمين.»

«طبعاً يا سيدتي، لم أفكر في ذلك.»

قالت الكونتس: «إن علينا أن نقوم بكل ما يجعل الآنسة فورتنديل مرتاحة.»

كانت وهي تتكلم تفكر مسرورة في عدة سيدات تعرفهن لديهن بنات قد أقيمت لهن حفلات التقديم. فهي ستزورهن غداً جميعاً وتقنعهن بضم أنتيا إليهن وأخذها معهن إلى الكثير من الحفلات التي يذهبن إليها حيث يقمن بحراسة بناتهن بأنفسهن.

www.liilas.com
وحده فاضيه

الفصل الثاني

وصلت أنتيا إلى لندن تحيط بها الراحة والرفاهية بالمقارنة إلى ما عانته من مشاق في القسم الأول من رحلتها.

لقد كانت السيدة فورتنديل قد شعرت في البداية بالذعر من فكرة سفر انتيا بمفردها إلى بلدة إيتون. واعلنت انه من المستحيل ان يكون هذا إلا إذا كان سفر انتيا بعربة سفر خاصة مصحوبة بمرافق.

فقالت انتيا: «تعلمين يا أمي ان السفر بهذه الطريقة يكلف كثيراً. فاستئجار عربة سفر لنفسي فقط سيكلف مبلغاً باهظاً.»

وأدركت أمها ان هذا صحيح، وعندما لم تجب قالت أنتيا بحزم: «سأذهب بعربة سفر عمومية، واطمئنك إلى انني ساكون بأحسن حال ومصحوبة بأكثر من عشرة من زملائي المسافرين.»

فابتدأت أمها تقول: «ولكنني لا...»

ولكن انتيا اسكتتها بقولها بنفس اللهجة الحازمة: «إما هذا، يا أمي، وإما ان ألغي فكرة السفر إلى لندن لعدم تمكننا من دفع النفقات، تعلمين انك تركت كل الأمور المالية بين يدي، كما أؤكد لك ان من الصعب جداً حتى توفير اجرة هذه.»

ولم تأت أنتيا على ذكر الملابس إلا بعد ان أصبحت وحدها مع تايس، فقالت وهي تبكي بيأس: «إنني اعرف تماماً ما الذي ستقولينه، يا تايس، ولكن ليس بإمكاني ان ابتاع لنفسي ثوباً جديداً وإلا ستتعرضن جميعاً للجوع.»

فقالت تايس: «ربما ستكون صديقة الوالدة كريمة فتعطيك شيئاً تلبسينه.»

فابتسمت أنتيا: «ارجو ان تفعل ذلك، ولكنني طبعاً لن أتخلى عن مقدار ذرة من الحماس، فهذا ما يدفعني إلى الأمام.»

ضحكت تايس وقالت: «خذي بعض ثيابك القديمة التي ترتدينها في الحديقة والمليئة بالاوساخ فقد يلفت هذا نظر مضيفتك ويحرك شهامتها اكثر من شيء آخر.»

فقالت أنتيا: «لدي شعور يا تايس بانك لو كنت مكاني لحققت نجاحاً اكثر مني، ما رأيك في ان تأخذي مكاني؟»

أجابت تايس: «كلا، مطلقاً، هذا إلى ان السيدة شيلدون تعرفك اكثر منا.»

قالت أنتيا متأملة: «يبدو لي أن الأمر غير طبيعي، إذ بعد كل تلك السنوات، تبدي كل ذلك السرور لاستلامها رسالة من والدتنا، وذلك الكرم في استضافتي.»

«لقد قالت والدتنا ان الصداقة الحقيقية لا تزول.»

أجابت أنتيا: «اعلم هذا، ولكن الظاهر أننا خسرنا كل اصدقائنا منذ وفاة والدنا.»

فقالت تايس متنهدة: «ربما السبب هو ان منزلنا هذا كان رخيصاً، ولهذا السبب اشترته والدتنا، ولكن لا تنسي انه يبعد ثلاثة أميال عن الطريق الذي تمر منه عربة السفر العمومية.»

وكان هذا صحيحاً لم تستطع أنتيا إنكاره.

ولكن هذا لم يفعل سوى تثبيت عزمها على القيام بأي شيء قد ينقذ شقيقاتها من تبديد صباهن وجمالهن دون ان يراهن احد سوى القرويين.

ولكن شعورها بأنها ذاهبة في رحلة بالغة الأهمية هو الذي دفعها إلى ترك منزلها في الصباح التالي مدركة ان امامها رحلة طويلة.

واوصلتها تايس وكلو في العربة التي يجرها دوبن، حصانهن الوحيد، إلى مفترق الطرق حيث عربة السفر العمومية تمر من هناك مرة واحدة يومياً.

لم تكن العربة مليئة بالمسافرين، ما جعل أنتيا تجد مقعداً في داخلها دون صعوبة.

اجتازت الخمسة عشر ميلاً التالية وهي تتحدث إلى مزارع محلي كان يعرف أباها فكان مسروراً لأنه وجد من يستطيع ان يفضي إليه بهمومه.

وكانت همومه هذه تتركز على المعاملة السيئة التي واجهت بها الحكومة المزارعين، بعد انتهاء الحرب.

قال المزارع بمرارة: «لقد كانوا بحاجة إلينا عندما كان نابوليون يقوم بتهديداته عبر القنال، ولكن الآن بعد ان انهزم، انهزمنا نحن أيضاً، لم يعد يهتم بنا أحد بعد الآن.»

وحاولت انتيا التخفيف عنه، ولكنها كانت مسرورة في الواقع عندما وصلت إلى هاروغيت واستطاعت تغيير عربتها إلى عربة أخرى ذات مظهر اكثر وجاهة. وكانت ممتلئة تقريباً، ولهذا كانت محظوظة إذ وجدت مقعداً، ولكنها حشرت بين امرأة بدينة تحمل طفلاً يصرخ وأخرى مريضة، اصرت على إبقاء النافذتين مقفلتين.

وقبل ان يصلوا إلى الفندق حيث سيمضون الليلة، كانت أنتيا قد ساعدت في رعاية الطفل، واستعادت البط الذي هرب من سلة كانت تنقل إلى السوق، كما استمعت إلى المرأة

فقالت تايس: «ربما ستكون صديقة الوالدة كريمة فتعطيك شيئاً تلبسينه.»

فابتسمت أنتيا: «ارجو ان تفعل ذلك، ولكنني طبعاً لن أتخلى عن مقدار ذرة من الحماس، فهذا ما يدفعني إلى الأمام.»

ضحكت تايس وقالت: «خذي بعض ثيابك القديمة التي ترتدينها في الحديقة والمليئة بالاوساخ فقد يلفت هذا نظر مضيفتك ويحرك شهامتها اكثر من شيء آخر.»

فقالت أنتيا: «لدي شعور يا تايس بانك لو كنت مكاني لحققت نجاحاً اكثر مني، ما رأيك في ان تأخذي مكاني؟»

أجابت تايس: «كلا، مطلقاً، هذا إلى ان السيدة شيلدون تعرفك اكثر منا.»

قالت أنتيا متأملة: «يبدو لي أن الأمر غير طبيعي، إذ بعد كل تلك السنوات، تبدي كل ذلك السرور لاستلامها رسالة من والدتنا، وذلك الكرم في استضافتي.»

«لقد قالت والدتنا ان الصداقة الحقيقية لا تزول.»

أجابت أنتيا: «اعلم هذا، ولكن الظاهر أننا خسرنا كل اصدقائنا منذ وفاة والدنا.»

فقالت تايس متنهدة: «ربما السبب هو ان منزلنا هذا كان رخيصاً، ولهذا السبب اشترته والدتنا، ولكن لا تنسي انه يبعد ثلاثة أميال عن الطريق الذي تمر منه عربة السفر العمومية.»

وكان هذا صحيحاً لم تستطع أنتيا إنكاره.

ولكن هذا لم يفعل سوى تثبيت عزمها على القيام بأي شيء قد ينقذ شقيقاتها من تبديد صباهن وجمالهن دون ان يراهن احد سوى القرويين.

ولكن شعورها بأنها ذاهبة في رحلة بالغة الأهمية هو الذي دفعها إلى ترك منزلها في الصباح التالي مدركة ان امامها رحلة طويلة.

واوصلتها تايس وكلو في العربة التي يجرها دوبن، حصانهن الوحيد، إلى مفترق الطرق حيث عربة السفر العمومية تمر من هناك مرة واحدة يومياً.

لم تكن العربة مليئة بالمسافرين، ما جعل أنتيا تجد مقعداً في داخلها دون صعوبة.

اجتازت الخمسة عشر ميلاً التالية وهي تتحدث إلى مزارع محلي كان يعرف أباها فكان مسروراً لأنه وجد من يستطيع ان يفضي إليه بهمومه.

وكانت همومه هذه تتركز على المعاملة السيئة التي واجهت بها الحكومة المزارعين، بعد انتهاء الحرب.

قال المزارع بمرارة: «لقد كانوا بحاجة إلينا عندما كان نابوليون يقوم بتهديداته عبر القنال، ولكن الآن بعد ان انهزم، انهزمنا نحن أيضاً، لم يعد يهتم بنا أحد بعد الآن.»

وحاولت انتيا التخفيف عنه، ولكنها كانت مسرورة في الواقع عندما وصلت إلى هاروغيت واستطاعت تغيير عربتها إلى عربة أخرى ذات مظهر اكثر وجاهة. وكانت ممتلئة تقريباً، ولهذا كانت محظوظة إذ وجدت مقعداً، ولكنها حشرت بين امرأة بدينة تحمل طفلاً يصرخ وأخرى مريضة، اصرت على إبقاء النافذتين مقفلتين.

وقبل ان يصلوا إلى الفندق حيث سيمضون الليلة، كانت أنتيا قد ساعدت في رعاية الطفل، واستعادت البط الذي هرب من سلة كانت تنقل إلى السوق، كما استمعت إلى المرأة

فقالت تايس: «ربما ستكون صديقة الوالدة كريمة فتعطيك شيئاً تلبسينه.»

فابتسمت أنتيا: «ارجو ان تفعل ذلك، ولكنني طبعاً لن أتخلى عن مقدار ذرة من الحماس، فهذا ما يدفعني إلى الأمام.»

ضحكت تايس وقالت: «خذي بعض ثيابك القديمة التي ترتدينها في الحديقة والمليئة بالاوساخ فقد يلفت هذا نظر مضيفتك ويحرك شهامتها اكثر من شيء آخر.»

فقالت أنتيا: «لدي شعور يا تايس بانك لو كنت مكاني لحققت نجاحاً اكثر مني، ما رأيك في ان تأخذي مكاني؟»

أجابت تايس: «كلا، مطلقاً، هذا إلى ان السيدة شيلدون تعرفك اكثر منا.»

قالت أنتيا متأملة: «يبدو لي أن الأمر غير طبيعي، إذ بعد كل تلك السنوات، تبدي كل ذلك السرور لاستلامها رسالة من والدتنا، وذلك الكرم في استضافتي.»

«لقد قالت والدتنا ان الصداقة الحقيقية لا تزول.»

أجابت أنتيا: «اعلم هذا، ولكن الظاهر أننا خسرنا كل اصدقائنا منذ وفاة والدنا.»

فقالت تايس متنهدة: «ربما السبب هو ان منزلنا هذا كان رخيصاً، ولهذا السبب اشترته والدتنا، ولكن لا تنسي انه يبعد ثلاثة أميال عن الطريق الذي تمر منه عربة السفر العمومية.»

وكان هذا صحيحاً لم تستطع أنتيا إنكاره.

ولكن هذا لم يفعل سوى تثبيت عزمها على القيام بأي شيء قد ينقذ شقيقاتها من تبديد صباهن وجمالهن دون ان يراهن احد سوى القرويين.

ولكن شعورها بأنها ذاهبة في رحلة بالغة الأهمية هو الذي دفعها إلى ترك منزلها في الصباح التالي مدركة ان امامها رحلة طويلة.

واوصلتها تايس وكلو في العربة التي يجرها دوبن، حصانهن الوحيد، إلى مفترق الطرق حيث عربة السفر العمومية تمر من هناك مرة واحدة يومياً.

لم تكن العربة مليئة بالمسافرين، ما جعل أنتيا تجد مقعداً في داخلها دون صعوبة.

اجتازت الخمسة عشر ميلاً التالية وهي تتحدث إلى مزارع محلي كان يعرف أباها فكان مسروراً لأنه وجد من يستطيع ان يفضي إليه بهمومه.

وكانت همومه هذه تتركز على المعاملة السيئة التي واجهت بها الحكومة المزارعين، بعد انتهاء الحرب.

قال المزارع بمرارة: «لقد كانوا بحاجة إلينا عندما كان نابوليون يقوم بتهديداته عبر القنال، ولكن الآن بعد ان انهزم، انهزمنا نحن أيضاً، لم يعد يهتم بنا أحد بعد الآن.»

وحاولت انتيا التخفيف عنه، ولكنها كانت مسرورة في الواقع عندما وصلت إلى هاروغيت واستطاعت تغيير عربتها إلى عربة أخرى ذات مظهر اكثر وجاهة. وكانت ممتلئة تقريباً، ولهذا كانت محظوظة إذ وجدت مقعداً، ولكنها حشرت بين امرأة بدينة تحمل طفلاً يصرخ وأخرى مريضة، اصرت على إبقاء النافذتين مقفلتين.

وقبل ان يصلوا إلى الفندق حيث سيمضون الليلة، كانت أنتيا قد ساعدت في رعاية الطفل، واستعادت البط الذي هرب من سلة كانت تنقل إلى السوق، كما استمعت إلى المرأة

المريضة، وهي تحصي نفقات العلاج الباهظة في مستشفى هاروغيت، كما كانت العربة غير مريحة وحارة الجو.

ولهذا كانت من التعب بحيث استغرقت في النوم حالما جلست على الفراش الخشن في الفندق. واستغرقت بالنوم الليل بطوله دون إزعاج، وقد كانت المسافرة الوحيدة التي بدت باسمة وهي تتناول الفطور السريع الذي قدمته لهم خادمة متعبة في الساعة الخامسة والنصف صباحاً.

كما وجدت الراحة والعناية اللتين وجدتهما بانتظارها في خان الحصان الأبيض في بلدة إيتون أكثر متعة.

ولم تكن المرافقة التي أرسلتها صديقة والدتها لاستقبالها امرأة مسنة تنظر بترفع إلى شابة ريفية، كما كانت أنتيا تخشى.

ولكن، بدلاً من ذلك، وجدتها فتاة تدعى إيما لا تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها كانت البهجة تغمرها لأنها اوكلت لهذه المهمة غير العادية.

«ان الآنسة بيرسون، يا آنسة، وهي رئيسة الخادمات، يصيبها الدوار دوماً من ركوب العربات، لذلك شعرت بالمرض عندما قالت السيدة ان عليها ان تأتي لاستقبالك.»

فقالت أنتيا: «إنني آسفة لتسببي في هذا الإزعاج.»

قالت إيما: «ولكن هذا كان من حسن حظي، يا آنسة، فأنا اشعر بنفسي كسيدة حقيقية إذا سافرت في عربة درجة أولى. انني لم أسافر في مثل هذه العربة من قبل.»

كان واضحاً تماماً ان إيما كانت فتاة ثرثارة. وحيث كانت أنتيا متعبة من تأثير الرحلة في الليلة الماضية لم

تتكلم، وآثرت ان تبقى مجرد مستمعة وهما تباشران رحلتهما إلى لندن.

ولم تكد تجلس امامها على المقعد الصغير الحسن التنجيد حتى قالت لها أنتيا: «انني لم اذهب إلى لندن قط من قبل.»

أجابت إيما: «انها مدينة كبيرة، ولكنها تحتوي على اماكن كثيرة للتسلية لكل انسان، راقياً كان أم وضيعاً، فليس من المستغرب ان تحبها سيدة شيلدون اكثر من الريف.»

وعندما رأت أنتيا تستمع إليها بانتباه، تابعت تقول: «كنا، في الواقع، نحزم امتعتنا، يا آنسة، وقد أنزلت الصناديق والحقائب من المخزن عندما وصلت رسالة والدتك، وكنت أنا اساعد ماريا، وهو اسم الخادمة الخاصة للسيدة، فإذا بالكونتس تندفع داخلة إلى الغرفة قائلة: «لقد نجونا، يا ماري. لقد نجونا. اعيدي الأمتعة من الحقائب. إننا سنبقى في لندن. آه، يا ماريا. لشد ما أنا مسرورة.» وتملكت أنتيا الدهشة.

ولكنها وجدت الآن التفسير الواضح لوصول جواب، رسالة أمها بمثل هذه السرعة.

سألت وهي تحاذر من أن تبدو فضولية: «ألا تحب السيدة الريف؟»

«بل هي تكرهه، يا آنسة، كلنا نعرف ذلك. وهذا ليس غريباً. لقد سمعتها مرة تقول ان قصر شيلدون أشبه بالسجن، وهو يبدو كذلك في الواقع هذا إلى انه يبعد أميالاً عديدة عن أي مكان آخر.»

فسألتها أنتيا: «وهل تحبين انت أيضاً لندن؟»

أجابت إيما بخجل: «ان لدي أسبابي الخاصة لذلك.»

«اتعنين انك تعرفين شاباً؟»

سألتها إيما: «كيف علمت ذلك، يا آنسة؟ انه يشتغل في لندن، وإذا كان علي ان اذهب مع السيدة إلى شيلدون فمن المؤكد انه سيجد فتاة غيري.»

وهكذا، قبل وصولهما، عرفت أنتيا الكثير من وراء ثرثرة إيما.

فقد كان واضحاً ان السيدة قد رحبت كثيراً باستضافة ابنة صديقتها، كما فهمت أيضاً ان هناك حفلات تقديم كثيرة ستقام، وكذلك احتفالات أخرى، عند وصولها.

ولم تستطع إلا ان تشعر بشيء من القلق لقلة ما تحتوي حقيبتها من ثياب.

لقد كانت احضرت معها ثوبها الجديد، ثم احسن ثوب عند تايس وكذلك ثوبين لأمها وذلك بعد ان سوت من طولهما.

لقد كان بإمكان بنات اللايدي فورتنديل جميعاً ان يخطن جيداً فقد كانت مربيتهن العجوز قد علمتهن ذلك، ما جعل بإمكانهن نسخ أي طراز لأي ثوب في مجلات الأزياء الحافلة بأزياء لكل مناسبة.

كانت أنتيا تعلم ان الأثواب التي احضرتها معها جميلة وتناسبها تماماً. ولكنها كانت بالغة البساطة ومصنوعة من أرخص قماش ممكن الحصول عليه.

وحدثت نفسها بقولها، قد لا يعجب بي اي رجل. وكان هذا آخر ما تريده. فقد كان من المهم جداً ان تكون محط الاعجاب.

وتساءلت عن انواع الرجال الذين ستدعوهم السيدة إلى منزلها للتعرف إليها. ولكن الجواب لهذا جاءها في نفس ليلة وصولها.

كان الوقت عصراً عندما وصلت عربة السفر إلى منزل شيلدون في شارع كيرزون.

كان المنزل رائع المنظر رغم انه لم يكن له حديقة خاصة به، كما كانت انتيا تتوقع.

كان مدخل الباب الأمامي ذو الأعمدة، يطل مباشرة على الشارع. ولكن حالما شاهدت انتيا الردهة الفاخرة بأرضها الرخامية وسلمها الملتوي، أدركت انه اكبر منزل شاهدته في حياتها.

أخذت إلى صالون اذهلها بجماله وترفه البالغين.

لم تكن تتصور ان صديقة والدتها تعيش في منزل كهذا.

فأخذت تحدّق حولها في الأثاث المزخرف بالذهب والتحف الجميلة واللوحات الرائعة على الجدران والتي تمثل اسلاف السيد شيلدون.

ثم أعلن رئيس الخدم من الباب أن السيدة تستريح في غرفتها ولكنها تريد من أنتيا أن تصعد إليها في غرفة جلوسها الخاصة.

كانت أنيتا، في هذه الأثناء، قد تملكها الخوف والرهبة... ولم يتلاش هذا الشعور وهي تدخل غرفة الجلوس الخاصة وترى السيدة.

كانت تعلم أن سيدة شيلدون أصغر سناً من والدتها ولكن ليس بسنوات كثيرة، ولهذا كانت تتوقع رؤيتها تقترب من منتصف العمر.

ولكن النظرة الأولى التي ألقتها على السيدة أخبرتها كم كانت مخطئة.

كانت السيدة مستلقية على مقعد مستطيل وقد ارتدت معطفاً منزلياً وبدت لأنتيا أنها لا تكبرها كثيراً.

لم تكن انتيا تتصور ابداً امرأة بهذا القدر من الجمال.

ولكنها، وهي تقترب منها، تملكها الحرج.

قالت ديفلين شيلدون: «انتيا، طفلتي العزيزة. كم تسرني رؤيتك. أرجو أن رحلتك لم تكن متعبة.» ومدت إليها يديها.

فانحنت أنتيا احتراماً، ثم تقدمت تمسك يديها بين يديها هي قائلة:

«كم هو لطف منك أن تستضيفيني في منزلك.»

فقالت الكونتس: «إنني مسرورة لذلك. مسرورة جداً. ولكن التقصير من أمك التي أهملت الكتابة إليّ قبل ذلك، ما جعلني أنسى أنك لا بد قد كبرت الآن. ولهذا يجب أن تسامحيني.»

قالت السيدة بعد لحظة: «إنك جميلة، يا انتيا، ولكنك لست بجمال والدتك عندما كانت بمثل عمرك.»

فقالت أنتيا: «انني أشبه والدي. ولكن تايس وفيب تشبهان والدتي تماماً.»

فقالت الكونتس: «عندما كنت أنا في الخامسة عشرة، كنت أرى والدتك اجمل فتاة في العالم.»

تابعت ديلفين بعد قليل: «يجب ان تخبريني عن أسرتك ولكن فيما بعد، بعد ان تكوني قد ارتحت وغيرت ملابسك للعشاء. لقد رتبت أمر إقامة حفلة هذا المساء على شرفك. ثم بعد ذلك آخذك إلى نادي الماكس.»

فقالت أنتيا: «هذه الليلة؟»

أجابت ديلفين: «ولما لا؟ كلما اسرعت بالدخول إلى المجتمع كان افضل لك.»

«لشد ما انا شاكرة لك.»

وخيل إليها ان ديلفين جمدت في مكانها لحظة، قبل ان تقول: «كنت افكر، يا أنتيا، في ما يجب ان تخاطبيني به.»

فانتظرت أنتيا بينما تابعت ديلفين: «اظن من الأفضل لو دعوتني ابنة خالتي ديلفين، فبنات الخالة هم، عادة بجميع الأعمار، أليس كذلك؟»

أجابت أنتيا: «نعم، بالطبع.»

«لقد كنا، انا ووالدتك، كاختين. كنا صديقتين حميمتين وكان منزلا والدينا متجاورين. إذن، هذا هو الحل.»

فقالت أنتيا: «نعم، بالطبع.»

«إذن، فأنا ابنة خالتك ديلفين. لا تنسي.»

فقالت انتيا: «ساتذكر هذا.»

قرعت ديلفين جرساً ذهبياً صغيراً موجوداً قرب مقعدها. وعلى الفور فتح الباب وبدت خادمتها الخاصة.

قالت لها ديلفين: «هذه هي الآنسة فورتنديل، يا ماريا. خذيها إلى غرفتها. ولا بد ان الخادمات قد اخرجن امتعتها من الحقيبة الآن.»

أجابت ماريا: «نعم يا سيدتي.»

«إلى اللقاء إذن، يا انتيا، سنتقابل في الصالون قبل العشاء. إرتدي اجمل اثوابك، وتذكري أن أول نظرة هي دائماً الأهم.»

تذكرت أنتيا كلمات ديلفين فيما بعد عندما كانت في الماكس ورأت نفسها، دون ريب، أسوأ الفتيات أناقة.

لم يكن مظهرها مهماً أثناء العشاء إذ لم ينتبه إليها أحد. ولكنها وجدت بعد ذلك، أن ثوبها الأبيض البسيط قد بدأ يلفت الأنظار.

فقد كانت أثواب الحاضرات كلها من القماش الفاخر.

ولم يكن غريباً ان تشعر أنتيا بنفسها وكأنها فتاة يتيمة قادمة من مؤسسة خيرية.

وحدثت نفسها بأنها مجرد فأرة ريفية ولا يمكن ان يعتبرها احد شيئاً غير هذا.كانت حفلة العشاء مؤلفة من عشرين سيدة وسيداً. وكانت السيدات بالغات الأناقة، وكان واضحاً انهم يعرفون بعضهم بعضاً جيداً، وكما لاحظت أنتيا، كان يبدو انهم من اصدقاء ديلفين الحميمين.

قدمتها إليهم جميعاً، ولكن ديلفين اغفلت ذكر اسمائهم بينما قدمتها هي بصفتها ابنة خالتها وقد جاءت إلى لندن لحضور ما تبقى من فصل التقديم.

لقد انحنى لها الرجال احتراماً، أما النساء فقد تنازلن بإحناء رؤوسهن لها، ثم عدن إلى ما كن عليه من حديث قبل دخولها.

كان جالساً إلى جانب انتيا على المائدة شاب وسيم الشكل استغرق، منذ لحظة جلوسه، في حديث طويل مع سيدة إلى يساره.

وإلى جانبها الآخر كان يجلس رجل من النبلاء مرح الوجه يتحدث أثناء العشاء عن الخيل وذلك مع رجل يبعد عنه بمقعدين.

كان واضحاً انهما من اصحاب الخيول ويتنافسان على نيل الكأس الذهبية في سباق اسكوت، ولكن انتيا فهمت ان هناك متسابقين آخرين يتحدونهما.

وحيث ان أحداً لم يتبادل معها سوى بضع كلمات، فقد أمكنها هذا من مراقبة بقية المدعوين باهتمام.

كانت في الواقع، تحاول ان تحتفظ في ذاكرتها بكل شيء وذلك لكي تحدث به شقيقاتها فيما بعد.

كانت كلو قد قالت لها قبل السفر: «إياك ان تنسي شيئاً مما يحدث. انك تعلمين أننا نريد ان نسمع كل التفاصيل، من هم الناس الذين ستتعرفين إليهم، وماذا يلبسون، وطبعاً ما يقولونه.»

فقالت أنتيا: «إذا أنا كتبت كل شيء فسيكون ذلك بمثابة كتاب كبير الحجم.»

قالت تايس متوسلة: «اكتبي قدر إمكانك، واخزني الباقي في ذاكرتك.»

فوعدتهما أنتيا بقولها: «سافعل ذلك.»

كانت قد حفظت في ذاكرتها، وهي في عربة السفر، تقليد المسافرين مثل المرأة المريضة الكثيرة الشكوى، والمرأة مع الطفل الرضيع، وزوجة المزارع التي سهت عن بطاتها فتقافزت من السلة، وذلك كي تجعل شقيقاتها يضحكن.

نظرت إلى المدعوين الجالسين حول المائدة، فرأت ان بإمكانها ان تقليد بعضهم بسهولة.

كما رأت ان بامكانها وضع بعض الصور التخطيطية لبعضهم على بعض الرسائل التي كانت مصممة على إرسالها إلى المنزل كلما سنحت لها الفرصة.

لم تكن قد رأت من قبل هذه الأطباق الفضية ولا مثل هذا العدد من الخدم، أو مثل هذه المجوهرات المتلألئة الثمينة.

كان نادي الماكس هو اكثر النوادي الخاصة ترفعاً في

كل لندن. وكانت قرأت مرة ان كثيراً من الأشخاص يتمنون أن توجه إليهم دعوة إلى الماكس. ولكن الذين يتعاملون بالتجارة لا أمل لديهم في الدخول بسبب الحراسة الشديدة عند الباب.

وحدثت نفسها عندما توجه المدعوون إلى الماكس بأنها سترى الآن، كل الاشخاص ذوي المراكز الهامة.

نقل ضيوف السيدة ديلفين موكب من العربات التي كان يجرها جياد أصيلة تاقت نفس أنتيا إلى تأملها عن قرب. ووجدت نفسها تجلس بجانب صديقة والدتها في عربة أذهلها ان تراها اكثر اناقة ورفاهية من باقي العربات.

كما انها كانت واثقة تماماً، وذلك من النظرة الأولى، من ان الجوادين اللذين يجرانها لايضاهيهما أي من الجياد التي تسير في الشارع.

ولم تعلم إلا بعد ان تحركت بهما العربة ان هذه العربة ليست ملكاً للسيدة ديلفين وإنما للسيد الذي كان يرافقهما.

قال: «لم اذهب إلى الماكس منذ وقت طويل. وأرجو ألا يصيبني الملل مرة أخرى من مضيفاته المستبدات البالغات الترفع والكبرياء.»

فقالت ديلفين: «انك تعلم ان عليّ ان آخذ أنتيا إلى هناك لتتمكن من التعرف إلى المدينة يا غارت وإذا نحن لم نحضر حفلة هذه الليلة، فعلينا ان ننتظر أسبوعاً كاملاً لنحضر الحفلة التالية.»

واستدارت إلى أنتيا قائلة: «كل شيء يعتمد يا عزيزتي على تأثيرك الجيد على السيدة كاستلريف، والسيدة جيرسي، والسيدة كوبر، والأميرة دي ليفين، وطبعاً

صديقتي العزيزة الأميرة استرهيزي والتي تبرعت لأجلي بدعوتك إلى الماكس.»

فقالت انتيا بشيء من الخوف: «أرجو ان اتمكن من ذلك.»

«انهن، كما قال الدوق غارت، بالغات الترفع.»

فأجفلت أنتيا.

لم تكن تعلم ان الرجل الجالس أمامها هو دوق، وفكرت في مقدار البهجة التي ستتملك اخواتها عندما يعلمن أنها قابلت دوقاً.

نظرت إليه على الضوء المنساب من خلال نوافذ العربة.

ولم تكن قد رأته أثناء العشاء بين الرجال الذين كانت ديلفين قد قدمتها إليهم.

وحدثت نفسها بأنه حتماً يبدو مميزاً، وكانت أختها كلو قد قالت لها قبل السفر: «ربما ستقابلين دوق ويلنغتون، فإذا كان ذلك، اسأليه ان كان ما زال يتذكر أبي.»

عند ذاك أجابت أنتيا: «لن اقابل أبداً رجلاً ولو بنصف أهمية الدوق هذا، وإذا حدث ذلك فسأكون من الخوف بحيث لن استطيع إلقاء اسئلة.»

ولم يكن هذا الذي امامها هو دوق ويلنغتون الشهير، ولكن ربما كان من نسب مهم، ما يفسر هذا الترفع الذي يحيط به حتى وهو صامت.

سألها الدوق: «كم من الوقت علينا ان نبقى؟»

أجابت ديلفين: «أقل ما بإمكاننا.»

فلم يجب الدوق، وبعد لحظة عادت تقول: «تذكر أننا ندين لأنتيا بالكثير.»

أدارت أنتيا رأسها تحملق في ديلفين، دون ان تفهم

شيئاً، وعندما همّت بالسؤال رأت ديفلين تنظر الى الدوق.

سألها بصوت خافت: «أعرف ذلك.»

أجابت: «حسناً.»

كان واضحاً تماماً لأنتيا انهما نسيا وجودها تماماً هذه اللحظة، فبقيت صامتة. ولكنها كانت تنصت إليهما بفضول بالغ.

وجدت في نادي الماكس كل ما كانت تتصوره، قاعة الإحتفالات الكبرى التي تتدلى منها ثريات البلور الضخمة، النوافذ المستطيلة المغطاة بالستائر المخملية المرايا ذات الإطارات المذهبة، كما كانت الفرقة الموسيقية تجلس في شرفة فوق رؤوس الحاضرين... كل ذلك كان كما تصورته بالضبط.

كان هنالك أيضاً أرملات النبلاء واتباعهن جالسات على الكراسي المذهبة عند زاوية القاعة، والمضيفات يعرفن المدعووين الى بعضهم.

رحبت الأميرة استرهيزي بأنتيا وبعد ان وجدت لها أحد المرافقين اعتبرت أن واجبها انتهى حيالها.

لكن هذا الشاب لم يكن يبدو عليه الاهتمام بها، فوجدت أنتيا نفسها جالسة بجانب السيدة ديلفين التي كانت تتحدث إلى الدوق.

جلست تراقب الحاضرين الذين كان البعض منهم مقبولي الشكل، بينما البعض الآخر غريبي الشكل تدعو تصرفاتهم إلى الضحك.

كانت من الإستغراق في تأمل المكان والحاضرين إلى حد اجفلت معه عندما سمعت صوتاً بجانبها يقول: «من أنت؟ ولماذا لم أرك من قبل؟»

أدارت رأسها وإذا برجل كبير السن أشيب الشعر قد خطّت وجهه التجاعيد. ولكن في عينيه فطنة ودهاء، كما كان على شفتيه ظل ابتسامة.

أجابت انتيا: «لأنني لم احضر إلى هذا المكان قبل الآن.»

«أهي المرة الأولى لك؟»

«لقد وصلت إلى لندن عصر هذا اليوم.»

وكان الرجل يستند بيده على عصا ذات مقبض عاجي. وكانت إحدى ساقيه ممدودة أمامه، ما جعل أنتيا تظن انه لا بد أن يكون اعرج.

قال الرجل: «إذن فانت تهنئين نفسك لدخولك مثل هذا المكان.»

أجابت انتيا: «لقد كنت أفكر كم أنا محظوظة.»

فقال: «لا أرى ثمة حظاً كبيراً في هذا، إلا إذا كنت تشيرين إلى حظك في الولادة. ان نسبك هو الذي جعلك مؤهلة لدخول هذا المكان... اما المواهب فلا تفيد هنا.»

ضحكت أنتيا، وقالت: «انني مسرورة لهذا.»

«أتعنين ان ليس لديك مواهب؟»

فاعترفت قائلة: «ليس الكثير.» وتذكرت حديثها السابق مع شقيقاتها.

فقال مؤكداً: «وهذا أيضاً شيء حسن، ان كثيرات من النساء يحاولن هذه الأيام التقدم إلى الأمام، بينما كل ما اطلبه من المرأة أن تكون كما هي.»

«هل تراني سيئة الأدب، يا سيدي، إذا أنا طلبت منك ان تخبرني عن بعض الحاضرين هنا؟ إنني أريد ان احدث شقيقاتي عن ذلك عندما اعود إلى بيتنا.»

فقهقه الرجل الكهل، وقال: «إذا انت فتحت أذنيك جيداً أثناء وجودك في لندن، فسوف تسمعين الكثير مما يمكنك ان تعيديه عليهن، ما اسمك يا شابة؟»

«أنتيا فورتنديل، يا سيدي.»

«واسمي الماركيز تشيل.»

شهقت أنتيا ثم قالت: «اظنني سمعت عنك، يا سيدي.»

قال تشيل: «لا اظن ما سمعته هو لمصلحتي. إذا أردت أن تعرفي من هم هؤلاء الناس... فهناك شخص سيدخل التسلية إلى نفسك.»

وأشار إلى رجل كان يجلس مع احدى السيدات.

قال: «ذاك هو الفانلي. انه بالغ الظرف، ويحب شيئين.»

سألته: «وما هما؟»

أجاب: «اقتناء الخيل وفطيرة المشمش الباردة.»

نظرت انتيا إليه لترى إن كان يمزح، فقال مؤكداً: «ما اقوله لك صحيح، فقد بلغ حبه لفطيرة المشمش لدرجة انه أمر الطاهي في منزله بأن يقدم له مع وجبة الطعام واحدة منها وذلك يومياً على مدار العام.»

فهتفت تقول: «ما أغرب هذا.»

«إنه شخص محبوب، ولكنه مزعج لمن يستضيفونه.»

«لماذا؟»

«لأنهم يجب ان يأمروا احد خدمهم بالجلوس طوال الليل خارج غرفة نومه.»

«لماذا؟»

«لأنه بعد ان ينتهي من قراءة كتاب، وذلك في وقت متأخر من الليل، يطفىء شمعته إما بإلقائها على الأرض ملقياً

عليها وسادة، أو يدسها تحت وسادته وهي ما زالت مشتعلة.»

فضحكت أنتيا وسألته: «هل هذا صحيح؟»

أشار الماركيز بعصاه نحو رجل آخر كان يجلس مع احدى الفتيات، وقال: «وذاك هو الكولونيل دان ماكينون. وهو معروف بالنكتة البارعة.»

«أي نوع من النكات؟»

«إدّعى مرة في اسبانيا، انه السفير يورك وقد تستر عليه اصدقاؤه في فرقته العسكرية، وبقي على ذلك لمدة ساعات.»

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لقد اقام له رئيس البلدية حفلة عشاء على شرفه، وقدم الطعام بإسراف، فإذا به يلوذ بالفرار.»

عادت أنتيا إلى الضحك وهي تقول: «انك تجعل كل شخص يبدو مضحكاً.»

«لو راقبتهم لوجدتهم كذلك فعلاً، ساخبرك بقصة أخرى عن الكولونيل ماكينون هذا. إنه محبوب من الفتيات، ولكنه يعيرهن أي اهتمام ويذرفن عليه الدموع الغزيرة.»

فقالت: «يمكنني ان اتفهم ذلك.»

كان السرور واضحاً على الماركيز لعثوره على من يستمع إليه، فتابع ثرثرته يحدث أنتيا بقصص كانت تعلم أنها ستدخل البهجة إلى نفوس شقيقاتها.

كانت أنتيا مأسورة اللب بحديث هذا الماركيز، ما منعها من ان تنتبه إلى نهوض ديلفين من جانبها مع الدوق.

وعندما مرا من امامهما، قال الماركيز: «هذه هي السيدة

شيلدون... امرأة بمزاج خاص. أتصور أن زوجها يجد صعوبة في التداول معها.»

لم تتأكد انتيا ما كان يعنيه بقوله هذا، ولهذا بقيت صامتة بينما تابع هو يقول: «حسناً، لقد قابلت مثيلاً لها في شخص اكزمينستر هذا. إنه شخص آخر يترك دوماً خلفه قلوباً محطمة.»

فقالت: «إنه يبدو بالغ الكبرياء.»

رد عليها الماركيز قائلاً: «ان لديه ما يحمله على الكبرياء، أسرة عريقة، ثروة طائلة اغلب الفتيات اعجبن به لكن فشلن.»

فسألته انتيا: «اتعني فتيات يردن الزواج منه؟»

أخذت أنتيا تراقب ديلفين والدوق باهتمام جديد.

لقد بدا لها الآن، بعد كلام الماركيز، وكأن هذا الدوق معجب بديلفين.

ولكنها ما لبثت ان حدثت نفسها بأن النساء المتزوجات اللاتي تعرفهن والدتها يحاذرن جداً على سمعتهن. فإذا تحدث الناس بالسوء عن ديلفين فما ذلك إلا لأنها رائعة الجمال.

كانت تتساءل عما إذا كان عليها أن تكشف للسيد حقيقة وجودها في منزل هذه السيدة. ثم تقدمت ديلفين نحو أنتيا.

قالت: «يا طفلتي العزيزة، إنني مقصرة جداً نحوك بعدم بحثي عن رفيق لك، ان الدوق سيسره جداً التحدث معك.»

فقالت انتيا محاولة الاحتجاج: «آه، كلا.»

ولكن ديلفين تركتها مبتعدة بينما تقدّم الدوق من أنتيا.

فتمنت انتيا ألا يراها ريفية لا تستحق أن يتحدث معها أحد.

أدركت، وقد ساورها ذعر مفاجيء، انه يبدو، في الواقع، ضجراً للغاية.

لم تخطيء تمييز ما بدا على وجهه من تعبير، وكانت واثقة وهو يكلمها، من ان ديلفين أرغمته على الجلوس معها رغم إرادته.

ولأن والدتها كانت تقول دوماً ان الصمت يجلب الضجر، وان على الناس ان يتبادلوا الحديث مع من هم برفقتهم، قالت انتيا بعد لحظة: «كان الماركيز تشيل يحدثني بقصص مسلية جداً عن بعض الموجودين هنا.»

أجاب الدوق ببرود: «لو كنت مكانك لما صدقت نصف ما يقوله. فهو معروف بالثرثرة على الغائب في النادي الأبيض.»

كانت تحب ان تسأل الدوق بعض الاسئلة عن ذلك النادي، ولكن لهجته في الحديث عن الماركيز كانت على شيء من الفظاظة.

وفكرت في انه من المؤكد يكره الحديث مع فتاة عديمة الأهمية مثلها، ولهذا قصع الحديث معها بعد وقت قليل.

وعندما اعادها إلى ديلفين بسرعة كانت هي الإهانة بعينها.

عندما وصلا إلى ديلفين، قالت هذه لها: «أرجو ان تكوني قد استمتعت بالحديث. وبعد، لا يساعد الحظ كل فتاة على التحدث مع دوق وذلك في أول ليلة تظهر فيها في نادي الماكس.»

ألقت نظرة على الدوق ثم أضافت قائلة: «انني واثقة من انك تحب ان تعاود الحديث مع أنتيا.»

فقال: «اظن الوقت قد حان للعودة إلى البيت. إنني لا احب جعل جيادي تنتظر في الخارج مدة طويلة.»

كان يتكلم بحدة، وخيل إلى انتيا ان في عينيه وهو ينظر إلى ديلفين نظرة تحد.

وبدا للحظة وكأن هناك معركة بين إرادتين، ثم ما لبثت ديلفين ان قالت: «نعم، لقد تأخر بنا الوقت، يا غارت. كما ان انتيا مجهدة من السفر، إنني واثقة من انها رأت في الماكس كل ما تريد.»

ودعوا الأميرة استرهيزي، وخصوصاً انتيا لأنها دعتها خصيصاً، وقالت لها الأميرة: «لقد سرني وجودك، يا آنسة فورتنديل ويجب ان تقنعي ابنة خالتك بإحضارك إلى هنا مرة أخرى الأسبوع القادم.»

أجابت انتيا: «سأحاول ذلك، يا سيدتي.»

وكان هناك الكثير من الانحناءات وكلمات الوداع للأميرة من الضيوف، قبل ان يتمكنوا، في النهاية، من الخروج والصعود الى عربة الدوق.

أثناء العودة إلى منزل ديلفين في شارع كورزون، لم يدر أي حديث بين الدوق وبينها.

وعندما نزلوا إلى الرصيف، قالت ديلفين: «اشكر كرمك نحوي ونحو ضيفتي، إننا شاكرتان لك جداً.»

وانحنت انتيا احتراماً، أما رئيس الخدم الذي ادخلهما، فقد وقف عند الباب المفتوح إلى ان ابتعدت عربة الدوق.

قالت له ديلفين حين اغلق الباب: «سنصعد إلى غرفتينا

مباشرة، يا داوسون، وحيث ان السيد غير موجود هنا، فلا حاجة بك إلى ان تترك خادم ليلي في الردهة هذه الليلة.»

فقال رئيس الخدم: «شكراً سيدتي، ان جايمس سيكون شاكراً لعطفك جداً.»

ابتسمت ديلفين له، ثم تحولت تصعد السلم وهي تقول لها: «هيا بنا، يا انتيا، انك بحاجة إلى النوم لتستيقظي اكثر نشاطاً فلدي الكثير من المشاريع السارة لك غداً.»

أجابت انتيا: «انك بالغة اللطف، لا يمكنني التعبير عن مقدار شكري لك وكم أسعدتني زيارة الماكس هذا المساء.»

فقالت ديلفين: «وانا ساكون مسرورة بوجودك معي هنا.»

عندما وصلتا إلى أعلى السلم، تابعت تقول: «تصبحين على خير، يا فتاتي العزيزة، ليس ثمة سبب يدفعك إلى الاستيقاظ باكراً في الصباح. إنني لا اتناول طعام الإفطار قبل الساعة العاشرة.»

ثم ابتعدت متجهة نحو غرفة نومها حيث رأت انتيا الخادمة الخاصة تنتظرها في الداخل.

كما ان إيما سمعت صوت وصولهما، فاقبلت مسرعة نحو غرفة انتيا.

سألتها: «هل استمتعت بوقتك هناك، يا آنسة؟»

أجابت انتيا: «لقد امضيت وقتاً جميلاً يا إيما. ونادي الماكس كان كما كنت اتصوره بالضبط.»

فقالت إيما بحماس: «كانت السيدات يرتدين اثواباً انيقة حول مائدة العشاء.»

فقالت انتيا: «وهذا رأيي أنا أيضاً.»

وعندما خرجت إيما، ذهبت هي إلى فراشها.

كانت تظن انها ستستغرق في النوم في الحال، ولكنها، بدلاً من ذلك، وجدت نفسها تتذكر كل ما حدث، وكل الناس الذين تعرفت إليهم وما اخبرها به الماركيز.

وقالت لنفسها: يجب ألا انسى شيئاً.

ومرت ساعة وهي مازالت مستيقظة.

نهضت، واشعلت الشمعة التي بجانب سريرها، ثم نظرت حولها تفتش عن ورقة وهي تحدث نفسها بأن عليها ان تدوّن الأسماء. وتساءلت عن كيفية تهجئة اسم الفانلي.

كانت غرفتها اصغر من ان تتسع لمكتب لكتابة الرسائل، ولسوء الحظ وجدت انها نسيت ان تحضر معها من منزلها دفتراً لكتابة الرسائل أو حتى دفتر الرسم.

كانت قد احضرت، على كل حال، علبة الألوان وعدة اقلام للرسم، ولكن ذلك لم يكن ليفيد دون ورق تكتب عليه.

ثم تذكرت انها كانت رأت في الصالون، منضدة أنيقة للكتابة يعود طرازها إلى عهد لويس الرابع عشر، وعليه دفتر اوراق بيضاء في اعلاها وسم شعار الأسرة وهو نفس نوع الورق الذي كتبت ديلفين عليه رسالتها لولداتها.

وعزمت انتيا على النزول إلى الصالون لإحضار بعض الورق.

وفتحت الباب بهدوء.

كان السكون يعم المنزل ولم يكن في الردهة سوى ثلاثة شموع مضاءة، ولكن نورها كان كافياً لكي ترى انتيا طريقها دون صعوبة.

وصلت إلى الصالون، ورأت انها إذا هي تركت الباب مفتوحاً فستتمكن من أن ترى الطريق إلى منضدة الكتابة.

ووجدت، كما توقعت، الكثير من الورق فأخذت بعضاً منها.

لقد رأت، حيث انها ستستيقظ قبل مضيفتها بوقت طويل، ان بإمكانها ان تكتب رسالة طويلة إلى شقيقاتها وتخبرهن بكل ما كان لها.

وما ان خرجت من الصالون، حتى سمعت حركة عند الباب الأمامي.

وقفت جامدة في مكانها، وقد ظنت نفسها مخطئة. ولكن الصوت عاد مرة أخرى، وبدا لها وكأن هناك من يعالج قفل الباب، ففكرت انتيا ان يكون هناك بعض اللصوص، وتساءلت عما إذا كان ينبغي عليها أن تصرخ أو تركض طالبة النجدة.

كان لديها فكرة عن ان الخدم ينامون في الطابق السفلي ولكنها لم تكن واثقة من ذلك، فهي لم تر سوى الطابقين الأولين منذ وصولها ولم تكن لديها فكرة عن القسم الذي يرقد فيه الخدم.

ثم فتح الباب الخارجي ودخل رجل إلى المنزل، استدار ليغلق الباب خلفه. وإذ وقفت انتيا تنظر إليه شاعرة وكأنها قد شلت عن الحركة، توجه هو نحو السلم. عند ذلك رأت وقد تملكها ذهول عارم، انه الدوق، وفي نفس الوقت الذي عرفته فيه، رآها هو واقفة تحملق فيه.

سألها بحدة: «ما الذي تفعلينه هنا؟»

أجابت بصوت مرتجف: «ظننت... ظننتك... لصاً. كنت... على وشك ان... اصرخ.»

مضت لحظة صمت. ثم قال: «لقد تذكرت شيئاً... هاماً كان علي ان اخبره... لديلفين.»

فتقدمت انتيا نحوه وقالت: «ان ابنة... ابنة خالتي ديلفين دخلت لتنام. إذا كان الأمر... مهماً، يمكنني ان ابلغها به.»

بقي واقفاً مكانه.

ثم قال بعد لحظة: «سأخبرها بنفسي.»

فقالت بإصرار: «ولكن ابنة خالتي ديلفين في فراشها.»

ومرة أخرى سادت فترة صمت قبل ان يقول بلهجة بان فيها التهكم: «إذهبي انت إلى فراشك ولا تتدخلي في شؤون الآخرين.»

ولم ينتظر جوابها بل تابع صعود السلم، وعندما وصل إلى آخره استدار في اتجاه غرفة ديلفين حيث اختفى عن الأنظار.

وبقيت انتيا واقفة تحدّق في أثره، وقد اخذتها الدهشة.

الفصل الثالث

شعرت أنتيا بالصدمة وكذلك الحرج.

وكون الدوق هو، كما أدركت الآن، صديق لديلفين، بدا لها ذلك أمراً لا يتقبله العقل.

لم تكن تتصور قط أن الناس الأكبر سناً، أو بالاحرى النساء في مثل سن والدتها، يمكن أن يقمن بتصرفات كانت تظنها تقتصر فقط على ملوك فرنسا وتشارلس الثاني في انكلترا.

وكانت هي تراهم مجرد أشخاص لا صلة لهم بالواقع الإنساني.

أما أن تواجهها حقيقة أن صديقة والدتها ديلفين على معرفة بغارت أكزمينستر فقد كان اكتشافاً اقلقها.

كما أنها شعرت بجهلها البالغ، عندما قال لها الدوق ألا تتدخل في شؤون الآخرين.

وعندما أقبل الصباح، تمنت أنتيا لو أن بإمكانها العودة إلى منزلها في يوركشاير لربما هناك تنسى كل ما عرفته وشاهدته.

وتساءلت بذعر عما إذا كان الدوق غارت قد أخبر ديلفين بما حدث.

وتأكدت في الحقيقة من أنه قام بذلك عندما استدعيت إلى غرفتها في الساعة التاسعة والنصف صباحاً وذلك قبل الموعد الذي اعتادت فيه ان تستيقظ بنصف ساعة.

وأثناء سير أنتيا في الممر أخذت تفكر في ما عليها قوله، وبماذا تفسر الأمر، وكانت تشعر أيضاً، كونها ريفية ساذجة، لا يكفي عذراً لما بدا منها من غباء.

كانت ديلفين جالسة في سريرها تستند إلى الوسائد الوثيرة المزينة بالدانتيل.

وقفت أنتيا عند الباب وهي تتساءل متوجسة عما ستقوله لها، ولكنها دهشت عندما قالت لها باسمة:

«صباح الخير يا أنتيا. أظن أنك ربما تحبين الذهاب معي للنزهة في الحديقة العامة هذا الصباح. وأرى، بعد ذلك، أن نزور شارع بوند ونرى إن كان يعجبك شيء فيه لاقدمه لك هدية.»

وأدركت أنتيا أن ديلفين ترشوها.

فشعرت بجرح في كبرياءها واحترامها لنفسها من هذا الاسلوب الذي لجأت اليه لكي تحتفظ بفمها مقفلاً.

كانت على وشك أن تجيب بأنها ليست بحاجة إلى شيء، عندما أطلقت الكونتس صيحة حادة جعلت أنتيا تجفل.

ثم سألتها: «هل هذا أفضل ثوب عندك؟ لقد لاحظت الثوب الذي ارتديته الليلة الماضية! آه، يا أنتيا، ما أشد غفلتي. لا عذر لي أبداً في عدم تفكيري في هذا.»

سألتها أنتيا بارتباك: «تفكرين في ماذا... يا ابنة خالتي ديلفين؟»

«في أنك تحتاجين إلى ثياب جديدة إذ تأتين من ريف يوركشاير إلى لندن، وقد نسيت أيضاً أن أباك لم يكن غنياً. ما الذي جعلني مهملة إلى هذا الحد؟»

وقبل أن تترك مجالاً لأنتيا بالاجابة، أخذت الكونتس تقرع الجرس الذي بجانبها بعنف.

وعندما دخلت ماريا راكضة، هتفت بها: «لماذا لم تخبريني، يا ماريا، أن الآنسة فورتنديل بحاجة إلى ثياب جديدة. إننا نعرف أنها قادمة من الريف. كم أنا متضايقة من بلاهتنا إذ لم نعدّ لها بعض الملابس.»

فابتدأت أنتيا تقول: «لا أريد أن... أزعجكم...»

ولكن ديلفين لم تعبأ بقولها هذا وإنما أمرت ماريا بأن تحضر لها من خزانتها كل ما لم تكن بحاجة إليه.

ثم قالت لها: «سأشتري لك بعض الثياب الجديدة. ولكن ذلك طبعاً سيستغرق بعض الوقت. وأثناء ذلك سترتدين ثيابي هذه، في الحقيقة، الكثير منها لم أعد أستعمله.»

وفيما بعد. أخذت ديلفين تعطيها العشرات من مختلف أنواع الملابس الغالية الأنيقة، فلم تفهم انيتا كيف استطاعت أن تقبل بالتنازل عنها. ولكن كان لديها عذر مقبول لكل قطعة نبذتها.

وأمسكت ماريا بثوب أشبه بالأحلام بينما كانت ديلفين تقول: «لقد ارتديت هذا في حفلة السيدة بيدفور، وقد حسدتني عليه كل السيدات الموجودات هناك، ولكنني لا أستطيع الظهور به مرة أخرى.»

وعندما أخرجت ماريا ثوباً ومعطفاً من الساتان قالت: «لقد ارتديت هذا الطقم مرتين وذلك في قصر كارلتون وقد أعجب به الدوق كثيراً. ولكنه لا يريد رؤيته مرة أخرى.»

وكان هناك ملابس للسهرة وملابس لبعد الظهر، وللصباح، وللأسفار.

وكذلك قبعات مناسبة لها جميعاً. مزينة بالريش والشرائط والأزهار.

وأيضاً حقائب يدوية تتلاءم مع الملابس، وأحذية من نفس اللون، والتي كانت، لحسن الحظ، تناسب قدمي أنتيا.

لم تستطع إحصاء عدد ما أخرجته ماريا من خزانات الثياب ومن غرفة أخرى ايضاً، ومع هذا كان لا يزال باقياً أضعافاً مضاعفة.

كل ما أعطتها إياه، كما أدركت أنتيا، كانت ذات ألوان تناسب ديلفين أكثر مما تناسبها هي.

كان هنالك أيضاً عدد من الأثواب البيضاء اللون كانت، كما قالت ديلفين، مناسبة جداً بالنسبة لفتاة شابة مثلها حديثة الدخول إلى المجتمعات. لقد أدهش كل هذا أنتيا بحيث لم تدرك معه أن كل هذه الملابس لم تكن تناسب، بنوعيتها، فتاة صغيرة السن مثلها. ولكنها حتى عندما رأت فيما بعد أن بعضها لم يكن بالمستوى المطلوب، فقد كان أفضل كثيراً من الثوب الموسلين الذي كانت خاطته بيديها.

وكانت قد علمت من ماريا أن قماش الموسلين قد بطل طرازه منذ انتهاء الحرب.

كانت بعض المعاطف مزينة الحواشي بفرو السمور وعندما اقترحت أنتيا، أن تقص الفرو الثمين لتتركه لها، مدت الكونتس يديها تهتف بذعر: «يجب ألا تغيري من

التصميم، يا فتاة. وبعد، ماذا سأفعل بقطع الفرو سوى أن أرميها في سلة القمامة؟»

دهشت أنتيا لمثل هذا الاسراف، ولكنها وهي تحتج على كثرة ما تعطيه لها ديلفين، لم تستطع إلا أن تفكر في أن لديها الآن من الملابس ليس ما يكفيها فقط وإنما ما يكفي شقيقتيها تايس وكلو.

قالت لها: «كيف لي أن أتمكن من شكرك؟»

ولكنها فهمت تماماً ما كانت تعنيه ديلفين وهي تجيبها قائلة: «يمكنك أن تشكريني، يا أنتيا، بأن تكوني صديقتي الوفية كما كانت والدتك عندما كنا معاً.»

فقالت أنتيا بأدب: «هذا يشرفني.»

ولكنها كانت تتمنى لو أن ديلفين لا تفكر في أن سكوتها يمكن أن يشترى أو يباع.

وفي الأيام التي تلت، رأت أنتيا أن ديلفين قد رتبت لها الأمور بحيث لا تبقى في المنزل إلا نادراً.

كان هناك عدة سيدات، اثنتان منهن تمتان إلى السيد شيلدون بصلة القرابة، من اللاتي كن يقدمن بناتهن إلى المجتمع.

ويبدو أنهن قد أجبرن على أخذ أنتيا إلى الحفلات والرحلات التي يقمنها لبناتهن.

وبعد أسبوع من خروجها مع عائلات مختلفة، رأت أنتيا أن أفضل من كل ذلك هو المجتمع الخلاب الذي يحيط بديلفين.

لقد ذهبت معها إلى حفلة عشاء كانت شبيهة جداً بتلك التي أقامتها على شرفها ليلة وصولها. كما وجدت الأحاديث مفيدة ومليئة بالثقافة.

كان لا يشبه أبداً ذلك الضحك التافه المتواصل الذي كان عليها أن تحتمله من تلك الفتيات المماثلات لها في السن والمتقدمات مثلها إلى المجتمع.

ولحسن الحظ أنها، بعد أن تكون قد تناولت العشاء مع فتيات يقاربنها سناً، كانت تذهب لحضور الحفلات التي تقيمها المضيفات ذوات الأهمية السياسية أو الاجتماعية.

وفيها كانت تقابل الماركيز تشيل على الدوام، كان يقول لها حالما تقع عيناه عليها: «لديّ ما أخبرك به يا آنسة فورتنديل.»

وفي أول فرصة تسنح لها، كانت تجلس بجانبه، تستمع إلى قصصة المسلية عن الناس الموجودين في القاعة. قالت لها مرة إحدى حارساتها من الأرملات النبيلات: «لا أدري لماذا تضيعين وقتك مع ذلك الثرثار العجوز.»

وما كانت لتفهم لو أن أنتيا أخبرتها بأن أحاديث الماركيز تشيل هي التي كانت تجعل رسائلها إلى أسرتها تتألق تألق الماسات حول عنق ديلفين.

وحيث أن ديلفين كانت تستيقظ في الصباح متأخرة بينما أنتيا، مهما كانت تتأخر في السهر ليلا، لم تكن تستطيع التخلي عن عادتها في الاستيقاظ باكراً، كان نادراً ما يمر نهار دون أن تضع على منضدة الردهة مغلفاً سميكاً لكي يرسله رئيس الخدم إلى أسرتها في البريد.

ولكي تشارك شقيقاتها في ما كانت تراه، لم تكن تصف لهم ذلك فقط، بل كانت ترسم رسوماً تخطيطية للأشخاص الذين كانت تتعرف إليهم.

وطبعاً، لم تأت على ذكر مكانة الدوق الخاصة في حياة صديقة والدتها ديلفين. ولكنها تحدثت عن تعرفها به كما رسمت له صورة يبدو فيها بالغ في الترفع والاستبداد.

ولم تكن تستطيع منع نفسها من الشعور بالخجل عندما كانا يتقابلان رغم أنه كان يتصرف نحوها بنفس اللامبالاة المهذبة التي رأتها منه ليلة وصولها.

حتى مجرد التفكير في مبلغ الغفلة والسذاجة التي كانت عليهما، كان يزيد من كراهيتها لغارت لتسببه في وضعها في مثل هذا الموقف المذل.

علمت أنه كان أصغر سناً من ديلفين بكثير وكان في الواقع قد احتفل لتوه بذكرى مولده الثامن والعشرين.

لقد سمعت مرة أرملة نبيلة تحدث أخرى قائلة: «لقد كنت دوماً اعتقد أن غارت أكزمينستر سيتزوج ابنة السيد بروكنهيرست.»

أجابت الأخرى: «وهذا ما كانت تظنه السيدة. ولكنه كان مراوغاً كالثعلب.»

فقالت السيدة الأولى بحدة: «إنك تحبين الخير، يا عزيزتي، أكثر من اللازم إنني شخصياً، سأشعر بغاية السرور إذ أراه يتزوج. فهو مبعث إزعاج في المجتمع منذ مدة طويلة.»

فقالت صديقتها ضاحكة: «أي سيد بمثل ثرائه قد يكون بهذا الشكل. ولا بد أن تكون الفائزة به فتاة شديدة الذكاء.»

ولأن الدوق كان دوماً يحتل ذهن أنتيا، كانت تعلم، حتى دون أن تعرف، أنه كان دوماً في منزل شيلدون.

تاقت إلى التحدث عنه مع الماركيز تشيل، ولكنها أدركت أن ذلك سيكون عدم وفاء منها لديلفين.

ارتدت انتيا أجمل الثياب في كل الحفلات الهامة، وعند ذهابها إلى قصر كارلتون لتقديمها إلى الدوق.

بعد أن انحنت له باحترام كلي، قال لها بظرفه المعروف عنه، أنها جميلة، ولكنه يشك في ان باستطاعتها أن تكسف بجمالها هذا جمال ابنة خالتها ديلفين.

أجابته أنتيا: «ما كنت لأجروء على محاولة كهذه، يا سيدي.»

وأدهشها أنها لم تشعر بالخجل مطلقاً، ذلك لأنه لم يكن من وقار المظهر بنصف ما يبدو عليه في الصور والكاريكاتور.

أجابها: «كل النساء يردن اجتذاب الاهتمام وجميعهن يرغبن في المنافسة مع مثيلاتهن.»

أجابته: «ذلك فقط في محاولة للفوز باهتمام الرجال الصعب إرضاؤهم، مثلك، يا سيدي.»

فقهقه الدوق مسروراً فخشيت ان يعتقد بأن هذه وقاحة منها.

ولكنه وفي الواقع، اعتبر ذلك مجاملة منها. وفيما بعد في ذلك المساء اختص أنتيا بأن جعلها تشاهد لوحة كان اشتراها حديثاً.

وأثناء عودتهما إلى المنزل، قالت لها ديلفين: «لقد كنت ناجحة مع الدوق، من المؤسف أنها آخر حفلة يقيمها، فهو سيترك لندن إلى برايتون يوم الجمعة القادمة.»

فسألتها أنتيا: «هل يعني هذا نهاية فصل التقديم؟»

أجابت ديلفين بشيء من الأسف: «هذا هو الواقع.»

«إذن... فعليّ أن... أعود إلى بيتنا.»

«لا حاجة بك إلى العجلة، يا عزيزتي.»

ولكن بعد ثلاثة أيام وصلت رسالة من زوجها يقول فيها أن الوقت قد حان لقدومها إلى الريف حيث أن الدوق سيترك لندن.

وقالت الكونتس لغارت بصوت حزين: «لن ينقذنا شيء الآن.»

* * *

نزلت أنتيا من العربة العمومية عند مفترق الطرق لتجد تايس وكلو في انتظارها بعربتهن.

وعندما سارت نحوهما وابتدأ المساعد في العربة في انزال ست حقائب جلدية كبيرة، حدّقتا فيها وقد منعهما الذهول من الكلام.

صرخت أنتيا: «ها قد عدت إلى بيتنا آه، ما أشدّ سعادتي برؤيتكما.»

ما زال صوتها هو نفسه، وإلا لكان من الصعب معرفة أنتيا التي رحلت عنهما بشكل، وعادت اليهما بشكل آخر. كانت ترفل بثوب سفر وفوقه معطف يلائمه. وعلى رأسها قبعة عالية ذات حوافٍ مزينة بريش أخضر.

وهتفت كلو: «أنتيا... أهذا أنت حقاً؟»

وصرخت تايس: «لم أر قط من قبل من بمثل هذه الأناقة التي تخطف الأنفاس.»

وكان مساعد السائق قد وضع حقائبها إلى جانب الطريق، ثم رفع يده إلى قبعته يحييها بعد أن اعطته اجرته، ثم صعد إلى العربة.

إنطلقت العربة في طريقها بينما نزلت كلو من عربتها وهي تسألها بلهفة: «ماذا يوجد في هذه الحقائب؟ ماذا أحضرت معك، يا أنتيا؟»

أجابت أنتيا: «ملابس... أثواب، وكلها مثل هذا الثوب الذي أرتديه. هنالك عشرات منها... عشرات عشرات.»

فصرخت تايس: «لا أستطيع تصديق هذا. كيف استطعت الحصول عليها؟ من أين جاءتك؟»

أجابت أنتيا: «منحتها لي ديلفين. ولكن لديّ شيئاً أهم من هذا كثيراً سأخبركن به.»

فسألتها تايس: «وما هو؟»

«أصبحنا أغنياء.»

فشهقت الفتاتان: «أغنياء؟»

تابعت أنتيا: «لا أستطيع الصبر عن إخباركما بكل شيء. ولكن علينا أولاً أن نجد شخصاً يساعدنا بهذه الحقائب. إنني لا أجروء على رفعها بنفسي لئلا يتمزق ثوبي.»

فقالت تايس بسرعة: «كلا. كلا. لا تمسيّها.»

استدعين عدة غلمان رفعوا الحقائب إلى العربة بأجر قدره بنسان لكل منهم.

وانطلقت العربة بالفتيات الثلاث في طريق البيت سائرة ببطء حرصاً على الجواد العجوز.

سألتها كلو: «ما الذي عنيته بقولك أصبحنا أغنياء؟»

أجابت أنتيا: «لقد اكتشفت كيف ننتج المال. آه، كم هذا جميل، لديّ من الأخبار ما شعرت معه بأنني لن أصل إلى هنا أبداً. حتى عربة ديلفين التي أرسلتني فيها إلى بلدة ايتون، بدت لي وكأنها تزحف، تصورا ذلك.»

فقالت كلو ضارعة: «حدثينا عن المال. لا أستطيع التفكير...»

وسكتت فجأة ثم عادت تقول بلهجة مختلفة: «لا أظنك تعنين أنك مخطوبة، يا أنتيا.»

أجابت أنتيا: «كلا. كلا. الأمر ليس كذلك.»

فقالت تايس: «وكيف هو إذاً؟»

أجابت أنتيا: «لقد أصبح بإمكاني أن أنتج المال بنفسي. والأكثر من هذا، بإمكاني أن أنتج قدر حاجتنا.»

فسألتها تايس: «ولكن كيف؟»

أجابت: «ببيع رسومي التخطيطية.»

وأخذت أنتيا تحدثهما عما حدث قبل أسبوع فقط من عودتها.

كان ذلك بعد زيارتها قصر كارلتون حين أخذت تفكر في أنها، رغم استمتاعها بوقتها في لندن وأنها كانت تجربة شعرت معها بأنها غيرت، بشكل ما، من نظرتها إلى الحياة، بأنها لم تحقق ما جاءت لأجله.

ذلك لأنها لم تعثر على زوج.

ولكنها، في الواقع، لم تتلقّ أيّ عرض للزواج.

فهي لم تكن قط دون رفيق في أي من الحفلات التي حضرتها.

ولكن بينما أعلن لها اثنان منهما عن امكانية الزواج منها، علمت من الماركيز تشيل أن كلا منهما مرغم على الزواج من فتاة ثرية لانقاذ أراضيه من البيع.

لقد قال لها تشيل إن الرجال الأغنياء الذين يختارون زوجة لمجرد الزواج فقط وليس لغرض آخر، هم نادرون جداً.

ادركت أنتيا أن تشيل كان يريد تحذيرها من الاكتئاب فيما لو لم تتلق عرض زواج.

ثم تابع يقول: «هذا إلى أن أكثرهم، مثل الدوق اكزمنيستر، يملأهم الزهو بأهميتهم.»

لم تتمالك أنتيا نفسها من الشعور بالحزن ووهن العزيمة عندما أدركت أنه بانتهاء فصل التقديم، ستنتهي هذه الفترة الرائعة من حياتها، هي أيضاً.

عندها، عليها بالعودة إلى يوركشاير، إلى التقتير وعد البنسات لأجل الاسرة... جاعلة البنس الواحد يعمل عمل بنسين، ولن يكون الشيء السار في حياتها سوى حفلة ابتداء موسم الصيد في شهر كانون أول (ديسمبر).

وحصل ما لم يكن بالحسبان.

كانت في انتظار ديلفين، في الصباح التالي. وكعادتها تأخرت.

اكتشفت أنتيا أن لديها عادة هي التأخر في ارتداء ثيابها الغالية المفرطة في الأناقة، وإذا بها تغير رأيها وتصمم على ارتداء شيء آخر.

كانت العربة تنتظر أمام الباب، وكانت أنتيا قد انتظرت أكثر من ثلث ساعة في القاعة عندما أخذت تشعر بالضيق. فنهضت لتدخل إلى غرفة لم تكن قد شاهدتها منذ وصولها إلى منزل شيلدون.

كانت تعلم أنها غرفة تخص زوج ديلفين، وجعلها هذا تفكر في والدها لأنها كانت واثقة من أنه كان يتمنى لنفسه غرفة مثلها لو سمحت له حالته المادية.

كانت هناك أريكة وثيرة من الجلد ومقاعد أخرى

شبيهة بها، ومكتب ضخم، وقرب أحد الجدران وضعت خزانة للكتب تحتوي على عشرات من الكتب المجلدة بشكل متقن.

اقتربت أنتيا منها شاعرة بشيء من التقصير لعدم اكتشافها هذا من قبل.

وعلى الجدران الأخرى للغرفة، كانت هناك صور كاريكاتورية وتخطيطية من عمل جايمس غيلاري وتوماس رولاندس الفنانين المشهورين.

كانت قد سبق وسمعت اسمي هذين الفنانين يتردد في الأحاديث، وعلمت أن كل شخص كان يعجب بأعمالهما التي كانت تنشر دوماً بواسطة الرسام الكاريكاتوري جورج كريكشانك.

وقفت تحدق في الرسوم معجبة بمهارة الفنانين في تمييز الأشخاص المشهورين الذين تشير إليهم.

ولم تخطىء في تمييز الدوق والسيدة هيرتفورد الوافرة البدانة.

كان هناك عدد كبير من الصور الكاريكاتورية عن زمن الحرب تظهر نابوليون في مختلف بذاته العسكرية.

أعجبت بالرسوم كثيراً وأخذت تتنقل من واحدة إلى أخرى.

ابتدأت تشعر بالخيبة عندما فرغت من رؤية جميع الصور، إذا بها ترى محفظة جلدية مفتوحة ملقاة على منضدة هناك فأدركت أنها تحتوي على عشرات من الصور التخطيطية.

كانت الصورة الأولى إشارة ساخرة إلى اعتماد مبلغ

خمسة وثلاثين ألف جنيهاً لشراء الرخام بينما جون بول وأسرته بحاجة إلى الخبز.

وحدثت أنتيا نفسها بأن هذا عمل بالغ في الذكاء. وعندما أخذت تتصفح بقية الصور وجدت نفسها تضحك وهي تتصفحها واحدة بعد أخرى.

واذا بها تدرك فجأة ان البعض منها لا يختلف عن التخطيطات التي كانت هي نفسها ترسلها الى شقيقاتها.

وفكرت ان في امكانها التعلم كثيراً من أعمال هؤلاء الرسامين.

رأت أن الرسام رولاندسون يستعمل قلماً من القصب مضيفاً إليه لوناً لامعاً.

ووجدت في رسومه نكهة مرحة ممتعة تجعلها مضحكة جداً.

وسمعت ديلفين تناديها، فأسرعت إلى الردهة حيث وجدتها تهبط الدرجات.

سألتها: «ما الذي تفعلينه في غرفة السيد؟»

أجابت: «أرجو ألا أكون قد أخطأت، ولكنني كنت أتفرج على الرسوم.»

«إن الماركيز يجمعها بنفسه. أنا شخصياً أراها مملة ومبالغاً فيها إلى حد يصعب عليّ معه فهمها.»

كانت أنتيا تعلم أن هذا غير صحيح. وعندما ذهبتا في اليوم التالي إلى شارع سانت جايمس، شاهدت ازدحاماً خارج دار نشر همفري، فتكهنت بأن رسماً كاريكاتورياً جديداً قد صدر إما بريشة رولاندسن أو كريكشانك.

وفي ذات اليوم أخذت تسأل تشيل عن رسامي الكاريكاتور.

فقال: «إن أولئك الرجال يصنعون ثروة. فيحملوا الناس على الضحك وهذا لا يؤذي أحداً.»

فسألته: «هل جايمس غيلاري ما زال حياً؟»

أجاب: «كلا، لقد مات سنة ١٨١١.»

«كنت أتفرج على بعض رسومه هذا النهار.»

«في مجموعة السيد شيلدون؟ إنه نادراً ما تفوته واحدة منها، ولكن لم يعد هناك الآن الكثير للنشر كما كانت العادة من قبل. لقد تجاوز رولاندسن عهد الشباب كما أخذ الكسل ينتابه. هناك فقط كريكشانك، وهو ما زال يافعاً. إنه في أوائل العشرينات من عمره في الواقع.»

فسألته: «أهو فتيّ إلى هذا الحد؟ ومع ذلك يشتري الناس أعماله الكاريكاتورية؟»

أجاب: «الناس يشترون أي شيء يجعلهم يضحكون.»

وأمضت أنتيا بقية المساء مستغرقة بالتأمل.

وعندما تركتها إيما في المساء لتنام، تناولت من الدرج دفتر التخطيط الذي كانت اشترته منذ وصولها إلى لندن حيث قامت بتخطيط عدد من الصور لتريها لشقيقاتها.

كانت كلها تمثل أفراد المجتمع الذين كانت شاهدتهم في نادي ألماكس وفي الحفلات الأخرى.

أدركت وهي تنظر إلى الصور هذه، أنها تعطي كل شخص شكلا كاريكاتورياً بطريقة لم تكن تفرق عن أعمال غيلاري.

كما ان الألوان المائية التي كانت قد استعملتها تماثل أعمال رولاندسن وكريكشانك.

أخذت تتفحص بعض أعمالها بعين ناقدة، ثم قامت إلى سريرها وقد بدا على ملامحها العزم.

وفي الصباح التالي استيقظت باكراً. وقبل أن تستيقظ ديلفين، خرجت مع أيما ثم استأجرت عربة عامة نقلتها إلى شارع سانت جايمس رقم ٢٧.

تركت إيما في الخارج ثم دخلت تسأل عن صاحب المكان.

وتملكتها الدهشة حين وجدته امرأة تدعى السيدة همفري، وهي عجوز تضع نظارات على عينيها.

وسألتها هذه: «أي خدمة، يا سيدتي؟»

شعرت أنتيا بشيء من الخجل وهي تخرج دفتر رسومها قائلة:

«لا أدري إذا كان... من الممكن أن... أبيع إحدى هذه الصور...»

كانت تعلم، والسيدة تتناول منها الدفتر، أن هذه تتدبر طريقة تعتذر فيها عن الشراء وذلك بطريقة مؤدبة لا تجرح احساسها.

وإذا بملامحها تتغير وهي تتصفح الرسوم.

سألتها بلهجة عدم تصديق: «هل رسمت هذه الصور بنفسك؟»

«نعم.»

«هل قدمتها إلى أي شخص آخر؟»

أجابت أنتيا: «كلا. لقد رسمتها لتتسلى بها شقيقاتي

اللاتي يعشن في الريف. وأمس كنت أتفرج على بعض أعمال غيلاري الكاريكاتورية فرأيت إسم محلكم وراء الصور.»

«لقد كانت خسارتنا للسيد غيلاري بالغة في الواقع.»

أجابت أنتيا: «إنني واثقة من ذلك. ولكنني أراكم تنشرون أعمال السيد جورج كريكشانك.»

أجابت السيدة همفري: «إنه شاب ماهر. ولكنه ليس فناناً كما كان السيد غيلاري، أو السيد رولاندسن.»

وأخذت تقلب المزيد من صفحات دفتر أنتيا، ثم قالت: «هل قلت إنك تريدين بيع هذه الصور؟»

سألتها أنتيا: «أترينها تستحق شيئاً؟»

فقالت السيدة همفري: «عن إذنك لحظة. فأنا أريد أن أتحدث إلى زملائي بشأنها.»

ودخلت إلى غرفة داخلية بينما وقفت أنتيا تنظر حولها.

لم يكن على المناضد المستطيلة رسوم كاريكاتورية فقط، وإنما بعض الرسوم الجميلة بالألوان المائية، ما جعل أنتيا واثقة من أنها لا تستطيع المنافسة في هذا الحقل.

وعادت السيدة همفري وهي تقول:

«إنك لم تخبريني باسمك، يا آنسة.»

فأخذت أنتيا تفكر بسرعة.

كانت واثقة تماماً من الخطأ،إذا هي نشرت أياً من رسومها هذه، أن تعلن اسمها للملأ.

فقالت: «إن اسمي هو ديل. الآنسة آن ديل.»

فقالت السيدة همفري: «حسناً جداً، يا آنسة ديل. أحب أن أخبرك أنني وزملائي أعجبنا كثيراً برسومك.»

فهتفت أنتيا: «أحقاً أعجبتكم؟»

«وكما نريد نشرها كلها.»

فسألتها أنتيا غير مصدقة: «كلها؟»

ظنت نفسها ربما لم تسمع جيداً.

«يمكنك تسلم الثمن إما بالاشتراك أو بتسلم المبلغ المتفق عليه وذلك دفعة واحدة.»

فقالت أنتيا: «آسفة إذ لم أفهم.»

قالت السيدة همفري تشرح لها: «هناك طريقتان يبيع بهما الفنان أعماله من رسوم كاريكاتورية وتخطيطية. أحياناً يأخذ الفنان ثمن ما يبيعه دفعة واحدة. وأحياناً أخرى يتسلم مبلغاً صغيراً في البداية، ثم يكون له بعد ذلك خمسون بالمائة من ثمن كل نسخة تباع. وهذه الصور التي ترينها في المحل، تباع عادة بمبلغ نصف بنس إلى بنسين لكل واحدة. ولكن رولاندسن يبيعنا أحياناً بما تبلغ قيمته ثلاثة جنيهات.»

ففكرت أنتيا لحظة، ثم قالت: «إذا أنت اشتريت رسومي هذه دفعة واحدة، فكم تعطيني ثمناً لها؟»

نظرت السيدة همفري إلى الصور وهي تحسب في ذهنها، ثم قالت: «حيث إننا بحاجة إلى رسامي كاريكاتور حالياً، وحيث أن هذه التخطيطات تصور ناحية من المجتمع لم تصور من قبل، فأنا مستعدة يا آنسة ديل، أن أدفع لك عشرة جنيهات لكل منها.»

مضت لحظة ظنت أنتيا أنها تمزح. ثم ما لبثت أن أجابت

بصوت يكاد لا يشبه صوتها: «إنني أقبل بهذا، يا سيدة همفري.»

ومنذ تلك اللحظة، خيل إليها أنها في حلم تخاف أن تستيقظ منه.

حتى الآن، وهي تخبر شقيقتها عما حدث، لم تكد تصدق أن هذا قد حدث حقاً.

وصرخت كلو بفزع: «عشرة جنيهات؟»

وسألتها تايس: «كم صورة بعت؟»

أجابت أنتيا: «كان في الدفتر عشرة رسوم.»

«مائة جنيه.»

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.»

قالت أنتيا: «وسيشترون مني كل ما أرسله لهم.»

ولم تستطع أن تقول أكثر من هذا إزاء الأصوات المختلطة التي صدرت عن تايس وكلو.

فبقيت صامتة مسافة ميل تقريباً من الرحلة. وعندما اقتربن من المنزل، قالت أنتيا: «كنت أفكر في أن من الخطأ أن نخبر أمنا بذلك. تعلمين أنها ستغضب مني لأنني أتاجر بفني، ثم ستخاف من أن يكتشف البعض شخصيتي الحقيقية.»

فقالت تايس بلهجة جادة: «نعم. الحق معك تماماً. فالأمر لن يسبب لها سوى القلق.»

فقالت أنتيا: «إنني فقط سأضع المزيد من النقود في المصرف، لقد أقنعت السيدة همفري بأن تعطيني المبلغ نقداً.»

وتذكرت كيف انتظرت فترة طويلة إلى أن استطاعت

السيدة همفري أن تحصل على المائة جنيه، وكانت خائفة من أن تتأخر في العودة إلى المنزل وتسألها ديلفين أين كانت.

لقد جعلت إيما تقسم على اخفاء الأمر قائلة بأنها كانت تشتري هدية خاصة للسيد شيلدون لتشكره على استضافته لها في منزله.

وأثبتت هذه القصة عندما اعطت السيدة همفري صورة كاريكاتورية لانتيا من آخر ما رسم جورج كريكشانك هدية منها، فأرتها أنتيا لإيما التي قالت لها: «لا أستطيع أن أفهم هذه الصور التي يرسمونها لكنها تسر خطيبي إن رأيي هو أن الرجال يحبون الضحك أكثر من النساء.»

سألتها أنتيا: «وما الذي يجعلك تظنين هذا؟»

أجابت إيما: «لأنني دوماً أحب التحدث عن الأشياء الجميلة، ولكن جيم لا يريد سوى المرح والضحك. إنه يقول لي: «هيا، يا إيما. أنت تعلمين أنني لن اتخلى عنك، فما الداعي إلى أن يبدو علينا الاكتئاب دائماً؟»

وقبل أن تترك أنتيا لندن، إشترت هدية لديلفين وهي عبارة عن سكين خاص لفتح الرسائل كانت قد أعجبت به في متجر في شارع بوند، ثم طلبت منها أن تسلم الصورة الكاريكاتورية التي رسمها جورج كريكشانك إلى السيد شيلدون.

فقالت لها ديلفين حينذاك: «ما أجمل هذه اللفتة منك، يا أنتيا. كم أنا مسرورة لسعادتك بزيارتنا وأنت تعلمين مبلغ سروري بنزولك ضيفة عندي.»

وسكتت ديلفين لحظة، ثم أضافت تقول: «ربما تمكنت من دعوتك مرة أخرى.»

قالت أنتيا على سبيل التجربة: «أو ربما دعوت تايس لزيارتك.»

أجابت الكونتس: «قد أقوم بهذا. نعم، قد أفعل هذا السنة القادمة.»

كانت أنتيا تعلم أن هذه الدعوة قد تحصل إذا احتاجت ديلفين إلى عذر لتمكث فيه في لندن.

وكانت أنتيا واثقة من أن تايس، إذا سنحت لها الفرصة، ستكون أكثر نجاحاً منها في العثور على زوج.

ولكن ما أهمية الزواج إزاء العثور على طريقة تزيد فيها من دخل الأسرة؟

فهي ستتمكن في المستقبل، في أن تزود المنزل بكثير من وسائل الرفاهية التي لم تكن متوفرة.

قالت بصوت عال: «لقد كنت محظوظة جداً. فقد أحضرت معي ملابس واكتشفت أن لديّ موهبة قابلة للاستغلال.»

فقالت كلو باعجاب واضح: «إنك ماهرة يا أنتيا.»

وكانت تايس أكثر واقعية، فسألتها: «وكيف ستتمكنين من رسم الناس إذا لم تكوني في لندن؟»

فقالت أنتيا معترفة: «لن يكون الأمر سهلاً، ما عدا أنني وجدت في شخص الماركيز تشيل صديقاً.»

فقالت كلو: «الماركيز تشيل؟ آه، يا أنتيا. هل يحبك؟»

فقالت أنتيا ضاحكة: «أبداً، فهو رجل عجوز جداً، قد تجاوز السبعين من عمره، ولكنه يعرف كل شخص وهو أكبر ثرثار في مجتمعه. لقد طلبت منه أن يكتب إليّ.»

فسألتها تايس: «وهل سيفعل؟»

كان هذا سؤال سبق وسألته أنتيا لنفسها. ولكنها عادت فاكتشفت أن تشيل معتاد على كتابة الرسائل، ويتبادل الرسائل مع الأقارب والأصدقاء بنفس الطلاقة التي يتحدث فيها.

فقالت بثقة: «إنني واثقة من أنه سيكتب إلي، ثم إذا نحن فتشنا في الصحف والمجلات، بعد أن اصبحت أعرف كيف يبدو الناس، فإن بإمكاني أن أضع لهم رسوماً تخطيطية وأجعل كل ما يقومون به يبدو مضحكاً.»

هتفت كلو: «هذا شيء جيّد، ويا ليت بإمكاننا أن نخبر أمنا وفيب، ولكنني أرى من الأفضل أن نبقي الأمر سراً بيننا.»

أجابت أنتيا: «نعم، هذا صحيح. ويجب ألا يعلم أحد بحقيقة شخصية الآنسة آن ديل أو... أنصتا جيداً إلى ما سأقول.» فأدارتا وجهيهما إليها بينما تابعت تقول: «أو حقيقة الفأرة الصغيرة التي ستبدو في زاوية كل رسم سأنشره.»

هتفت كلو: «الفأرة الريفية! هل أدخلتها حقاً في رسومك؟»

أجابت أنتيا: «إنها ستكون علامتي المسجلة. كنت أرسمها لتسليتكما.. وقد قررت الآن بأن أجعل منها توقيعي الخاص.»

فقالت كلو: «يا لها من فكرة غريبة، ولكن من المؤسف أن لا أحد سيعرف أن الرسامة هي أنت وأنا أرى أن بقاءك مجهولة سيجعلك تخسرين نصف سعادتك بذلك.»

قالت أنتيا ضاحكة: «وسأخسر أيضاً الردود من أولئك الذين سيعتبرون أنني أهنتهم.»

فسألتها تايس: «هل سيغضبون حقاً؟»

هزت أنتيا كتفيها وأجابت: «لا أظن ذلك. فأفراد الطبقة الارستقراطية يعيشون في عالم خاص بهم. إنهم يظنون أنفسهم أكبر وأرفع من أن يهتموا بما يظنه فيهم عامة الناس.»

كانت تقول هذا وهي تفكر في الدوق صديق ديلفين. لقد كانت واثقة تماماً من أنه لا يهتم بآراء الآخرين وإنما برأيه فقط.

فحدثت نفسها بأنه من الغرور والزهو بنفسه إلى درجة لا تطاق.

www.liilas.com
وحده فاضيه

الفصل الرابع

ترك الدوق عربته مع السائس، ثم سار على العشب باتجاه القسم الأخير من الحديقة.

كان الضباب، في الساعة السادسة صباحاً، ما يزال يحيط بجذوع الأشجار في حديقة هايد بارك كما كان العشب مبلّلاً بالندى.

وعندما وصل إلى هناك، بانت الحيرة على وجهه وهو يرى امرأة تضع على وجهها نقاباً تنهض من على مقعد وتطلق صرخة صغيرة.

«ما سبب هذا كله يا ديلفين.»

قال ذلك بعد آن رآها ترفع النقاب عن وجهها وتنظر إليه بألم.

أجابت: «كان عليّ أن أراك. ولم أجد سوى هذه الطريقة كي لا يعلم إدوارد بالأمر.»

فقال غارت: «عندما استلمت رسالتك منذ ساعة، لم اصدق.»

قالت بصوت مضطرب: «لقد عاد إدوارد ليلة أمس.»

فنظر غارت إليها مستطلعاً، فتابعت تقول: «لقد كان لديه سبب هام لذلك، وقد أحضرته معي.» ومدّت يدها تناوله شيئاً بدا كورقة ملفوفة بشكل اسطواني، فأخذه منها وهو يقول: «لنجلس أولاً. لا أرى سبباً يدفعنا إلى أن نكون غير مرتاحين.»

فهتفت الكونتس: «غير مرتاحين؟ انتظر حتى تسمع السبب في مجيئه إلى لندن.»

كانت تتكلم باضطراب بالغ جعل الدوق يجلس، بعد أن القى عليها نظرة سريعة، على أحد المقاعد، ثم فتح لفافة الورق التي كانت وضعتها في يده.

وعلى الفور رأى أنها صور كاريكاتورية، فتذكر أن السيد شيلدون لديه مجموعة منها.

وإذ أخذ ينظر إليها، رأى صورة تمثل اسداً بهيبته وكبريائه يضع على رأسه تاجاً ويجلس على وسادة مرسوم عليها شعار عائلته هو.

وأمامه كان عدد من القطط الصغيرة تتجاذبنه بمخالبهن متوسلات ضارعات، وكان لهن جميعاً وجوه فتيات شابات.

ولكن إحدى ذراعي الأسد كانت تحيط بقطة حمراء اللون ذات عينين خضراوين، وكان وجهها مشابهاً تماماً لوجه ديلفين.

وتحت الصورة، كان مكتوباً بكل بساطة: «القطط المعجبات.»

هتف غارت: «تبّاً. هذا كثير. من هو الذي رسم هذه؟»

أجابت ديلفين: «ليس لدي اي فكرة ولكن يمكنك ان تتصور شعور ادوارد حيال ذلك.»

«إنها ليست موقعة لا باسم رولاندسن، ولا باسم جورج كروكشانك.»

فقالت متذمرة: «وهل يهم من الذي رسمها؟ إن ادوارد في غاية الغضب بشكل لا يمكنك تصوّره.»

فقال بصوت بدا فيه الارتياح: «هل استطعت اقناعه؟»

اجابت ديلفين بألم: «لقد وصل ادوارد الساعة العاشرة من ليلة أمس وهو في حالة من الغضب الشديد مقسماً على أن يطلقني وان يقيم عليك دعوى.»

ذُهل غارت بينما تابعت هي تقول: «كان من شدة الغضب بحيث ظننت أنه سيضربني ولكنه ما لبث أن قال إنه سواء طلقني أم لا فهو سيقفل باب المنزل في لندن نهائياً. كما قال انني سأبقى في الريف لأكون تحت مراقبته. وقال انه تحمل طويلاً حبي للندن ومجتمعها السيء السمعة. وأنني سأبقى في المستقبل في القصر، وعليّ أن أعيد فتح غرفة الأطفال لنبدأ بالانجاب من جديد لنزيد من أفراد العائلة.»

تنهدت ديلفين وهي تتابع: «لا أكاد اصدق ان ادوارد هو الذي كان يتحدث الي بهذا الشكل. ولكنه كان يعني ما يقوله، يا غارت. اقسم لك انه كان يعني ذلك.»

ولم يقل غارت شيئاً، وبعد لحظة تابعت ديلفين تقول: «انك تعرف كم أكره الريف، وأنا اكبر سناً لأن اعود الى انجاب الأطفال. هذا الى انني لن اعيش في لندن، ولن أذهب الى الحفلات من جديد.»

سألها وقد بان في صوته الرجاء: «ولكن ألم يغير ادوارد رأيه في النهاية.»

كان يدرك ان ديلفين، كعادتها، تستغرق وقتاً طويلاً قبل الدخول في الموضوع.

فأجابت: «لقد بقيت ساعتين الى ان استطعت اقناعه بخطأ ظنه.»

«وكيف استطعت اقناعه؟»

«أقنعته بأن هذه الصورة هي مجرد كذبة خبيثة وأن السبب الذي جعلنا نبدو معاً كثيراً أثناء الأسابيع الماضية هو انك الخطيب لابنة صديقتي انتيا فورتنديل.»

«أخبرته ماذا؟»

وكان صوت غارت حاداً، اجابت ديلفين: «أخبرت ادوارد بأنك ستتزوج انتيا، ثم يا غارت، عليك ان تفعل ذلك وإلا فقد أقسم ادوارد أنه لن يقتنع بتفسيري هذا.»

فهتف: «لا بد أنك مجنونة. ليس في نيتي الزواج من فتاة لم اتكلم معها سوى مرة واحدة.»

«لكنك رأيتها كثيراً في الحفلات التي اقمتها وتلك التي حضرناها معاً.»

فقال غارت: «لقد رأيتها لأنها كانت تقيم في منزلك. وهذا لا يعني أنني أفضل الزواج منها.»

فقالت: «انك طبعاً لا تفضل الزواج منها. لكن عليك أن تنقذ هذا الوضع الخطير.»

فلم يقل غارت شيئاً، بل أخذ يحدق في الرسم الكاريكاتوري.

قالت ديلفين: «إذا أنت لم تثبت صحة هذه القصة، فأنا واثقة من أن ادوارد سيعود إلى خطته الأولى فيطلقني.»

فقال غارت: «لا أصدق انه سيقوم بعمل كهذا.»

قالت: «بل سيفعل. انك لا تعرف ادوارد كما أعرفه أنا. لقد جرحت كبرياؤه. ليس ثمة شخص اكثر كبرياء منه ولا أقوى عزماً عندما يصمم على أمر ما.»

كان غارت يعلم أن هذا صحيح إلى حد ما، ولكنه قال: «ربما من الأفضل ان اتحدث اليه.»

سألته: «وماذا بامكانك ان تقوله له أكثر من أن الصورة هذه ليست سوى كذبة قذرة، أتظن ان ادوارد سيصدقك؟»

فسألها: «ولما لا؟»

أجابت: «لأنني واثقة من أن ليست الصورة فقط هي التي اغضبته، وإنما اخبرهم احد الأشخاص بذلك.»

لم يجب بينما تابعت هي تقول: «إنك تعلم أن حماتي، رغم تقدمها في السن، لديها صديق يخبرها بكل ما أقوم به.»

وسكتت لحظة ثم قالت: «كما انه ليس بإمكان أحد أن يثق بالخدم.»

«أظن كنت قلت إن لديك خدماً جدد؟»

فأجابت: «ليس كلهم. ثم انني لا افترض انهم يتجنبون الثرثرة مع بقية خدم القصر. ربما دون ادراك منهم للضرر الذي قد يتسببون به؟»

كان غارت يعلم أن هذا أمر لا يمكن تجنبه.

قالت ديلفين: «ليس هناك سوى طريقة واحدة، وهي أن تتزوج انتيا في أقرب وقت ممكن.»

فسألها بفارغ صبر: «وكيف يمكنني ذلك؟ ولما هذه السرعة؟»

«لأن ادوارد قال انه سيبقيني مسجونة في قصر الريف الى أن تصبح انتيا زوجتك.»

قال غارت ببطء: «لا بد أن هناك طريقة أفضل لمعالجة هذا الوضع فأنا لا يمكنني ان اتصوّر نفسي زوجاً لأنتيا.»

فقالت بمرح: «كلام فارغ. ان انتيا فتاة في غاية الطيبة، بالاضافة الى ان عليك الزواج يوماً ما، ورغم أن آل فورتنديل هم فقراء، فإن أسرتهم بنفس عراقة ونبل اسرتك. وستكون لك زوجة محترمة. وأنت تعلم كما أعلم ان عليك ان تنجب وريثا.»

لم يستطع انكار صحة هذا الكلام، ولكنه لم يتصور قط ان يتنازل عن حريته قبل ان يصبح ذلك ضرورياً تماماً.

وكأنها قرأت أفكاره، برقة: «انني آسفة يا غارت. ولكن صدقني لا يوجد أي حل آخر لهذه المسألة.»

فعاد غارت ينظر إلى الصورة وكأنه يريد أن يرى إن كان ثمة مجال يمكنه به أن ينكر التلميح الذي تمثله.

كانت صورة جيدة رسمت ببراعة وحذق يفوقان رسوم جورج كروكشانك.

وسكت فترة طويلة. فتمتمت تقول: «إنها الطريقة الوحيدة التي تنقذنا نحن الاثنين.»

فقال غارت بكره منه: «إذن، فالجواب هو... نعم.»

* * *

كانت انتيا في المطبخ تعد العجين لتصنع فطيرة الدجاج للعشاء. كانت ترتدي فوق ثوبها مئزراً أبيض اللون.

كان بإمكان الشقيقات جميعاً الطهي جيداً، حيث ان مربيتهن العجوز كانت قد علمتهن ذلك منذ الصغر. وعندما استقالت لرعاية أختها المريضة، أخذن يتناوبن إعداد الطعام، وغالباً ما كن يتنافسن في إظهار البراعة في إعداد وجبات شهية.

كانت انتيا، أثناء إعدادها الطعام، تفكر في أنها الآن وقد صار بإمكانها تحصيل المال، سيكون بامكانها أن تحضر ماري هاريس من القرية ثلاث مرات أسبوعياً وذلك لتنظيف أرضية البيت. فقد كن يكرهن جميعاً مثل هذه الأعمال المنزلية وكانت تايس تفلح غالباً في التخلص من دورها في ذلك.

كانت انتيا واثقة من أن والدتها، وبسبب تفكيرها الدائم في كتابة الشعر، لن يخطر لها أن توجه اسئلة مثل السبب في احضار ماري هاريس للعمل ومن أين يمكنهن دفع أجرها.

وكانت انتيا تفكر راضية في المغلف الأنيق الذي يحتوي على ثلاث صور كاريكاتورية والموضوع على المنضدة في غرفة الدراسة في انتظار ارساله بالبريد الى السيدة همفري في لندن.

كانت الصعوبة الرئيسية تكمن في اخفاء ما تقوم به من رسم عن عيني أمها.

وأخيراً اكتشفت ان الاستيقاظ باكراً، وكذلك بعد أن تنام والدتها، قد تكون من افضل الأوقات لها، وهذا سيمنع من دخول والدتها غرفة الدراسة بشكل مفاجيء.

كانت تايس قد قالت لها: «أخبرينا عن الصور التي بعتها.»

أجابت انتيا: «الحقيقة هي أنني نسيت ما هي. لقد كنت أرسمها في دفتر الرسم كلما سمحت لي الظروف بذلك. ولم اكن اتوقع قط، عندما شاهدتها السيدة همفري، انها ستشتريها كلها.»

ابتسمت وهي تتابع: «لقد فكرت فقط انه سيكون من حسن حظي إذا هي اشترت مني واحدة واعطتني ثمنها جنيهاً واحداً يمكنني به شراء الهدايا لكن.»

فهتفت كلو: «عشرة جنيهات ثمن كل واحدة، انه ثمن لا يصدق لتلك الخربشات التي كنت تضعينها على الورق دائماً.»

فقالت تايس: «لقد اعتدنا ان نضحك لرسومك منذ كنا اطفالاً. ومن العجب انه صار بامكانك ان تجعلي من سكان لندن يضحكون لها الآن.»

فقالت انتيا: «انه امر عجيب لي أنا أيضاً. ولكن من الأفضل أن ارسم كل شيء اتذكره الآن قبل أن انساه، فقد تكون كارثة إذا اعادت الي السيدة همفري أي شيء أرسله لها.»

قالت تايس: «لقد طلبت منك أن تحدثينا عن الصور التي بعتها.»

فقالت انتيا: «لا حاجة بي لفعل ذلك، فسترينها بنفسك. لقد وعدتني السيدة همفري بأن ترسل لي نسخة من كل صورة تنشرها.»

فسألتها كلو: «هل أعطيتها عنواننا هنا؟»

أجابت أنتيا: «وماذا يعني غير ذلك؟ ولكنني أؤكد لك أن لا أحد في لندن يهتم بيوركشاير عدا بعض السادة الذين يحضرون إلى هنا أحيانا لحضور مباراة فروسية الخيل في دانكستر.»

قالت تايس ضاحكة: «وطبعاً، لم يسمع أحد بالآنسة آن ديل.»

أضافت كلو: «أو الفأرة الريفية.»

فقالت انتيا: «كلا، وهذا ما سيحميني.»

وضعت الفطيرة في الطبق الخاص بها، ثم قطعت الأطراف بشكل أنيق.

كانت الفتيات تحب فطيرة الدجاج، وقد وجدت انتيا وقتاً بعد الظهر لصنعها لهن حيث كان الجميع في الخارج.

كانت كلو وفيب تأخذان دروساً، أما تايس فقد ذهبت مع والدتها إلى دونكاستر.

كان صاحب الأملاك العجوز الذي يعيش في مكان يبعد ميلين، يحضر إلى دونكاستر لحضور اجتماع مع الموظفين المسؤولين عن السباق، وذلك مرة أو مرتين في العام، وفي كل مرة، كان يدعو السيدة فورتنديل لمرافقته.

وحيث أنها كانت نادراً ما تخرج من بيتها، فقد كانت بناتها يقلنّ لها دوماً بأن الخروج يفيدها.

كانت السيدة فوتنديل قد قالت لبناتها أمس عند وصول دعوة المالك إليها: «إنني في الواقع أريد الذهاب إلى المكتبة في دونكاستر، فهناك ديوان شعر للشاعر بيرون أحب شراءه بشكل خاص.»

فسألتها انتيا: «الشاعر بيرون، يا أمي؛ هل تراك تعودين الى الرومانسية مرة أخرى.»

أجابت الأم: «اشعر بأن اشعاره قد تساعدني في القصائد التي شرعت بنظمها منذ اسبوع.»

قالت كلو: «كنت أعلم انك ستعودين الى مثل هذه الكتابة عن الحب في النهاية.»

فقالت انتيا باسمة: «الحب هو داء لا علاج له.»

قالت تايس: «وهو أيضاً مرض مليء بالتعاسة والأحزان.» وكانت الاثنتان تشيران إلى ما كانت تقوله أمهما في اشعارها.

فقالت السيدة فورتنديل بوقار: «اظنكما تضحكان مني، ولكنني لا أريد أياً منكما ان تضحك من الحب إنه شيء رائع.»

قالت فيب: «لقد قالت لنا المربية مرة، أن السخرية من الحب يجلب الحظ السيء.»

فقالت السيدة فورتنديل: «وهو كذلك. ان هذا يذكرني، يا انتيا، بأنني لم اسألك قط عما اذا كنت قد تعرفت الى شخص ما أثناء وجودك في لندن.»

أجابت انتيا: «كلا يا أمي. إنني لم أتعرّف على أحد، والسبب هو أنني لم أجد شخصاً يماثل أبي في كل شي.»

كانت تعلم ان كلماتها هذه تسر والدتها، وترقرقت الدموع في عيني والدتها وهي تتذكر زوجها الذي أحبته حباً جماً.

كانت الفطيرة قد أصبحت جاهزة الآن لتوضع في الفرن. وتساءلت وهي تفتح باب الفرن القديم عما اذا كان بإمكان أي من صديقات ديلفين ان تطهي أي شيء حتى ولو بيضة.

وكانت تتساءل عما إذا كان يصلح أن ترسم لهنّ رسم كاريكاتوري، عندما سمعت قرعاً قوياً على الباب الخارجي.

وشعرت بأنها لا بد الرسالة التي كانت تنتظر قدومها من

السيد تشيل كانت قد كتبت إليه عند عودتها من لندن فقط لكي تتأكد من أنه سيفي بوعده في الكتابة إليها.

ودون أن تعبأ بخلع مئزرها الأبيض، ركضت من المطبخ نحو الباب الخارجي لتفتحه، عند ذلك صدرت عنها شهقة ذهول بالغة، لقد وجدت في الخارج عربة مكشوفة فخمة تجرها أربعة جياد، وخلفها كان فارسان في بزة زرقاء مذهبة، وخلف هذا العربة كانت تقف عربة سفر تجرها أيضاً أربع جياد فيها أيضاً فارسان.

وبينما أخذت انتيا تحدّق في هذا المنظر وكأنها لا تصدق عينيها، قال لها الخادم الذي قرع الباب، بحدة: «إن الدوق غارت اكزمينستر يزور السيدة فورتنديل. هل هي موجودة؟»

كان يتكلم بلهجة رئيس خدم يتحدث إلى خادم أقل منه شأناً.

وبينما بقيت انتيا واقفة لا تستطيع النطق، نزل غارت من عربته وتقدم نحو الباب.

قال: «أرجو المعذرة لحضوري غير المتوقع هذا، يا آنسة فورتنديل، والذي أظنه مفاجأة لك.»

فرددت انتيا خلفه بغباء: «مـ... مفاجأة؟»

فقال الدوق: «من الواضح انك لم تكوني تتوقعين قدومي. لقد كتبت الى والدتك منذ ثلاثة أيام. ولكن البريد بطيء الى حد مؤسف كما يبدو، وأظن انها لم تستلم رسالتي.»

وكانت عيناه وهو يتكلم تنظران الى مئزرها، فأدركت انتيا ان منظرها يبدو غريباً بالنسبة إليه.

فقالت بصوت متهدج: «كلا... كلا. لم تستلم أمي رسالة منك... وهي خارج المنزل هذا اليوم.»

فقال الأمير: «ما زلت أرجو أن احظى بشرف مقابلتها.»

عند ذلك تذكرت انتيا آداب الضيافة، فقالت: «هل لك ان تتفضل بالدخول؟»

أجاب بوقار: «شكراً.»

دخل الردهة، وسحبت انتيا المنشفة عن كتفها، ولكنها كانت من الارتباك والاستغراق في الذهول بحيث نسيت ان تخلع مئزرها.

وبدلاً من ذلك، سارت أمامه الى غرفة الاستقبال شاعرة بالارتياح وهي تراها بالغة الترتيب والنظام.

كانت ثلاث نوافذ مستطيلة تطل على الحديقة، وكان يعبق في الجو شذا عطري من أزهار يانعة قطفت حديثا، كانت قد نسقتها انتيا في مزهريات وزعتها في انحاء مختلفة من الغرفة.

سألته: «هل أنت في طريقك الى مباراة الخيل في دانكستر يا سيدي؟»

وأشارت تدعوه للجلوس على كرسي مريح، وكان هذا هو التفسير الوحيد الذي فكرت فيه لزيارة الدوق هذه.

فأجاب: «إنني أنوي في الواقع ان ابيت الليلة في منزل السيد دانكستر، انه احد اقربائي، انما السباقات لن تبدأ قبل الشهر القادم.»

«لقد... نسيت.»

ساد صمت قصير قال بعده: «حيث ان والدتك غير موجودة، فمن الأفضل ان احدثك عن نفسي.»

«تحدثني عن ماذا؟»

«عن سبب زيارتي.»

نظرت إليه متسائلة وقد ظنّت أنه لا بد يحمل إليها خبراً من صديقة والدتها ديلفين.

وبعد لحظة من التردد الواضح، قال غارت: «في رسالتي التي كان المفروض انها وصلت الآن، طلبت يدك من والدتك.»

حملقت انتيا في غارت بدهشة وهي لا تصدق ما تسمعه، ثم قالت بعد لحظة متلعثمة: «لا... أظنني... أفهم.»

«إنني أطلب الزواج منك، يا آنسة فورتنديل.» ومرة أخرى، ساد صمت عمّ المكان قبل أن تسأله بصوت غريب: «هل هذه... نكتة؟»

«أؤكد لك أنني جاد تماماً.»

«ولكنك... لا يمكنك... أعني... لا يمكنك.»

وما لبثت أن توقفت عن التلعثم وسألته بحدة: «لماذا تريد أن... تتزوجني؟»

أجاب بلهجة جافة: «لأن الوقت قد حان لأن اتخذ زوجة، وعندما تعارفنا في لندن فكرت في أننا متلائمان.»

فنهضت انتيا، وهي تقول: «لا يمكنني أن اتصور، يا سيادة الدوق، انك جئت لتوجّه إلي... اهانة... ولكن لا يمكنني أن... اعتقد ولو للحظة... أنك تتوقع مني... قبول مثل هذا العرض غير المتوقع وغير العادي.»

فسألها: «ولِمَ لا؟ إنني أعتبر، عادة، شخصاً ملائماً إلى حد بالغ.»

أجابت: «أعلم هذا... تماماً. ولكنك تعلم كذلك ان

هناك... اسباباً لعدم استطاعتي... قبول مثل هذه... الفكرة.»

تلعثمت عندما نطقت بالكلمات الأخيرة، شاعرة أنه من المستحيل عليها التعبير بما تفكر فيه، إذ كانت تعلم جيداً أنه لن يستطيع ادراك ما يدور في ذهنها.

لم يجب غارت، وبعد لحظة قالت دون أن تنظر إليه: «لا أظن لدينا... شيئاً ليقال... اكثر من هذا، يا سيدي، وحيث ان والدتي لن تعود إلى البيت قبل عدة ساعات... فلا فائدة من انتظارك لها.»

كانت تتكلم متمنية في الوقت نفسه أن يخرج في أسرع وقت ممكن.

ذلك لأنها لم تستطع فهم الدافع الذي جعله يأتي طالباً الزواج منها.

ولكنها كانت واثقة من انه لو تحدث الى والدتها، فسيكون من الصعب عليها جداً أن تبرر عدم موافقتها على الزواج منه دون ان تأتي على سيرة ديلفين ودورها في ذلك.

ذلك لأنها، كانت تريد البقاء وفية في كتمان سر ديلفين، ومن حسن الحظ انها كانت بمفردها اثناء زيارته هذه.

قالت له: «اذهب، أرجوك.»

فقال: «أعتقد من الأفضل ان أكون صريحاً معك، يا آنسة فورتنديل.»

فسألته بارتياب: «بماذا؟»

أجاب: «لم اكن عازم على ان اخبرك بالسبب الذي جعلني اطلب الزواج منك. ولكن ربما الصراحة هي الوسيلة الوحيدة كي تجعلك تفهمين سبب السرعة في هذا الأمر.»

فقالت: «لا أفهم عمّ تتحدث. دعني أوضح لك ان لا شيء مما تقوله يمكن أن يجعلني أوافق على الزواج منك. وكيلا نضطر إلى تقديم تفسيرات عسيرة لأسرتي، أرجو منك الخروج في الحال.»

وألقت نظرة على الساعة الموضوعة على رف المدفأة، فشعرت بالارتياح وهي تراها الثانية فقط، هذا يعني انه ما زال أمام كلو وفيب ساعة قبل عودتهما من القرية.

وتصورت دهشتهما وفضولهما وهما تريان الموكب الذي ينتظر في الخارج.

قال غارت: «أظنك تحبين ديلفين، يا آنسة فورتنديل.»

أجابته: «نعم، أحبها.»

«إذن، إذا كان بإمكانك إنقاذها من أمر قد يدمّر حياتها تماماً، فهل ترفضين أن تقومي بذلك؟»

فقالت: «كلا... بالطبع.»

قال: «إن زوجها السيد شيلدون يهدد إما بأن يطلقها، ويرفع عليّ الدعوى، أو ان يسجنها طوال حياتها في الريف مانعاً إياها على الإطلاق من زيارة لندن.»

كان يتكلم ببرود ودون اكتراث.

فهتفت انتيا: «مسكينة ابنة خالتي. لماذا يفعل زوجها هذا؟ ما الذي حدث؟»

قال: «قد تكونين رأيت مجموعة شيلدون من تلك الصور الكاريكاتورية الساخرة.»

فجمدت أنتيا في مكانها. بينما تابع هو يقول: «الصورة التي سببت كل هذه المشاكل، تمثلني مع ديلفين في مشهد اغضبه إلى أقصى حد.»

ولم تستطع أنتيا التنفس وهو يتابع قائلاً: «الطريقة الوحيدة التي منعت بها زوجها من تنفيذ تهديده، هي أن تخبره بأن السبب الذي كان يجعلني اتردّد إلى منزلها أثناء غيابه هو أنني وأنت كنا خاطبين.»

«وهل... صدق هو... هذا؟»

تكلمت انتيا بصوت خافت بالكاد سُمع. فأجاب الدوق: «لقد وافق على قبول هذا التعليل بشرط أن نتزوج بسرعة.»

سارت انتيا نحو النافذة تنظر منها إلى الحديقة بعينين لا تريان شيئاً تصدق صحة ما سمعت.

حتى انها بالكاد سمعت ما كان يقول غارت: «إن الضحك الكثير لا يؤذي أحداً.» ومع ذلك فقد كان الرسم الكاريكاتوري هو الذي سبب هذه المأساة وجعل من غارت يطلب يدها للزواج.

الصورة التي رسمتها بعد يومين من رؤيته وهو يدخل منزل ديلفين وظنته لصاً.

لقد كرهته عند ذاك وأرادت أن ترسمه بعجرفته واستبداده البالغين.

وما كانت لتهتم لو أن الصورة سببت الأذى له، ولكنها لم تكن تريد أبداً أن تسبّب الأذى لديلفين أو أن تسبب لها لحظة تعاسة.

فهي مدينة لها بالكثير من الشكر وعرفان الجميل للكرم الذي أظهرته نحوها.

والآن، الوسيلة الوحيدة لإظهار امتنانها لها، هي أن تتزوج غارت.

ولكنها أخذت تسأل نفسها، كيف يمكنني أن... أتزوجه، كيف يمكنني...؟

ولكنها كانت واثقة ليس فقط من أن غارت قد قال الحقيقة، وإنما من أن زوج ديلفين ينوي تحقيق تهديده فعلاً.

فهي لم تمكث في منزل شيلدون في لندن اكثر من شهر دون أن تلاحظ مقدار خوف ديلفين من زوجها، حتى أن الخدم كانوا يتكلمون عنه برهبة بالغة.

ورغم كثرة التعليقات التي سمعتها أنتيا عن ديلفين، إلا أنها لم تسمع أحداً يتحدث عن زوجها بغير الاحترام، وأحياناً بكره، على أنه لم يكن يخلو ابداً من الاحترام.

وجاءها صوت الدوق يقول: «إذا أنت قمت بهذا الأمر لأجلها، فأنا أؤكد لك أنها لن تكون هي وحدها شاكرة لك جداً، وإنما أنا أيضاً.»

سألته: «ولكن كيف... سنتزوج في مثل... هذه الظروف؟»

أجاب: «لا أرى في ذلك أية صعوبة.»

كان في لهجته نبرة تحد، فأدركت أنتيا أن أي امرأة يعرض عليها الزواج يتوقع منها القبول نظراً لمركزه المرموق.

وخطر ببالها أنها لو وجدت في لندن الزوج الذي ذهبت لتبحث عنه، فلا بد وأن يكون في حياته هو أيضاً سر يخجل منه ولا تدري هي عنه شيئاً.

انها تتذكر وبكل وضوح ما شعرت به عندما رأته يدخل منزل ديلفين.

فهي ما زالت تسمع نبرة التهكم الساخرة في صوته وهو ينصحها بألا تتدخل في شؤون الآخرين.

ولكن الملامة لا تقع سوى عليها، فهي التي أوجدت نفسها في مثل هذا الوضع السيء.

وسألت نفسها بذعر، كيف بلغت بها الحماقة إلى حد جعلها تبيع تلك الصورة مع غيرها؟

لكنها كانت في الحقيقة قد نسيت كل شيء عنها، وها هي ذي الآن تحدث نفسها بأن هذا كان جنوناً وعدم وفاء منها نحو ديلفين.

كانت أنتيا تعرف بالشهامة والوفاء، وكانت هذه ميزة فيها. فهي تشعر دوماً، ومن كل أعماقها، مع المتألمين والتعساء. وحكايات القسوة والحرمان تجعلها تذرف الدموع.

إنها تستمع إلى تذمر وشكاوى الفلاحين بكل صبر، وتتعرض للمتاعب في سبيل مساعدتهم.

ومع هذا، لمجرد ضخامة المبلغ الذي قدم إليها، إذا بها تنسى كل شيء وتلحق الأذى بديلفين. وحدثت نفسها بأن الصورة لم تكن سوى عمل خبيث منها، ولكن وقت الدفاع عن نفسها قد فات الآن.

تابع غارت: «لا أعتقد أنك من قسوة القلب بحيث ترفضين مساعدتها.»

فلم تستطع أنتيا الاجابة، وعاد هو يقول: «ربما تتوقعين مني أن اتوسل اليك»

كان في صوته نبرة ساخرة جعلت أنتيا تستدير إليه لتقول بحدة: «ليس ثمة ضرورة للتمثيل، يا سيدي، فقد كنت

صريحاً معي، وأنا سأكون صريحة معك أيضاً. وفي الواقع... لا اريد الزواج منك، ولكنك في مثل هذه الظروف... تجعل من المستحيل عليّ أن... أرفض.»

فقال: «كنت أعلم أنك ستكونين عاقلة، وأنا أؤكد لك، يا آنسة فورتنديل، بأنني سأبذل جهدي في سبيل إسعادك.»

«أشكرك.»

وعندما تلاقت نظراتهما، رأت أنتيا وكأنما يتحدى الواحد منهما الآخر إلى مبارزة كل منهما مصمم على أن يكون الفائز فيها.

قال غارت بعد لحظة: «أرى أنك تريدين أن تكوني وحدك عندما تخبرين أمك بالنبأ. ولهذا أرجو أن تتمكن من استقبالي غداً بعد الظهر حيث نتحدث عن الزفاف.»

قالت أنتيا: «هذا أفضل.»

قال غارت: «إنني سأواصل إذن رحلتي، ولكنني أريد أن أشكرك من كل قلبي لموافقتك على الزواج مني.»

أحنت رأسها قليلاً بينما تابع هو: «ويمكنني أن أؤكد لك بأن ديلفين ستكون شاكرة لك هي أيضاً. لقد أنقذت الموقف الذي كان سيسبّب التعاسة والأذى لعدد من الناس.»

أدركت أنتيا أنه كان يقصد أسرته، كما لا بدّ وله الكثير من الأقرباء الذين هي على ثقة من أنهم سيصابون بالدهشة التامة إذا علموا بمن سيتزوج.

وبدا أنه لم يبق بينهما ما يقال، ولأول مرة، لاحظت أنتيا أنها ما زالت تضع مئزرها الأبيض فوق ثيابها، وكذلك ما بدا عليه غارت من ثراء بالنسبة إلى تواضع منزلهم.

وعندما سارا باتجاه الردهة، لاحظ صورة أبيها السيد والكوت التي كانت موضوعة فوق رف المدفأة: «هل هذا والدك؟»

أجابت: «نعم.»

«فهمت من ديلفين أنه متوفٍ، هل قتل في معركة واترلو؟»

«نعم.»

«لقد شهدت بنفسي الهجوم العنيف والمفاجيء، لقد كان مدهشاً لم يحدث مثله في تاريخ انكلترا.»

«هل كنت في معركة واترلو؟»

«نعم، يجب أن نتحدث في هذا الأمر ذات يوم، فأنا أريد أن أعرف المزيد عن والدك.»

كانت أنتيا تعلم أنه يحاول التقرب منها، ولكنها كانت ضمنا تفضل عدم ذلك.

وقبل أن يصل إلى الباب، تقدمت تفتحه لتجد موكب غارت بأزياء فرسانه وخدمه، وكأنه يبدو كبقعة ملونة كما بدا المكان مختلف المنظر عما كان عليه قبل وصوله.

رأت أنتيا أن انسجام هذا المنظر مع طريق المنزل غير الممهد والذي تنمو فيه الأعشاب بشكل فوضوي، كذلك مظهر المنزل الخارجي الفقير، ليس أفضل من انسجام مظهرها هي مع هذا الرجل.

قال: «سأراك غداً.»

ثم تابع بعد لحظة: «دعيني أكرر شكري لك.»

فلم تجب.

وسار هو نحو عربته، وصعد إلى المقعد العالي ثم

استلم القيادة من سائسه، واستدار بجياده بخبرة يستحق عليها جائزة، كما رأت أنتيا.

وما أن رفع قبعته العالية يحييها، واقتدى به في ذلك خدمه، حتى انطلق موكب العربات والجياد في الطريق الذي تظلله فروع أشجار السنديان غاب عن الأنظار.

بقيت أنتيا واقفة تنظر في أثرهم فترة، أغلقت الباب بعدها، ثم رفعت يديها إلى وجهها.

لا يمكن أن يكون هذا قد حدث حقاً، لا بد أنها كانت تحلم بكل هذه الأشياء. كيف كان لها أن تعلم أو أن تتكهن بأن صورة كاريكاتورية صورة واحدة، من الممكن أن تسبب كل هذه المشاكل، ثم تورطها في مثل هذا المأزق؟ وكأنما فظاعة هذا الأمر قد نبهها إلى شيء، فاندفعت إلى غرفة الدرس حيث تناولت المغلف الملقى على المنضدة وأخذت تمزقه إرباً وهي تحدث نفسها قائلة: «ما الذي جعلني بهذا الجنون وبهذه السذاجة وبقصر النظر بحيث ظننت أنه بإمكاني رسم الناس الذين أتعرف إليهم دون ان اتوقع ما قد تكون ردة الفعل؟

لقد أدركت الآن انه ما كان عليها رسم تلك الصورة رغم أنها لم ترسمها إلا لتسلية شقيقاتها. وحيث أنهن لم يرين ديلفين قط من قبل، فقد كانت واثقة من أنهن لن يدركن من تكون تلك القطة الحمراء.

وكان الأمر كله مجرد تسلية لا اكثر، وهكذا وضعت ديلفين في الصورة. وعندما أخذت ترسم، لم يخطر ببالها أبداً أن أحداً ستقع نظراته على هذا الكاريكاتور غير تايس وكلو وفيب. ولهذا بالغت في اظهار ميزات كل شخص رسمته.

ولكنها الآن واثقة من أن لا مناص من أن يسبب الأذى. كان هناك رسم للسيد الفانلي وهو يلتهم طبق حلوى المشمش بينما يدس بيده الأخرى الشمعة التي بجانب فراشه، تحت الوسادة ليطفئها. كانت الصورة مضحكة للغاية ولكن، ربما لم يكن هذا رأيه هو.

وكانت هناك صورة أكثر إثارة تمثل الكولونيل دان ماكينون وهو يحصي خصلات الشعر، قائلاً لخادمه: «يجب عليّ أن أبحث حولي جيداً لأن مجموعتي ناقصة.»

فكرت في أنه ما كان لها أن ترسم هذه، وما كان يجب أن تبيع شيئاً يفضح خصوصيات الآخرين ويؤذيهم. وتساءلت عما إذا كان عليها الاسراع إلى لندن وتحاول إقناع السيدة همفري بأن تعيد إليها الصور التي لم تنشر بعد.

وحيث انها باعت رسومها دفعة واحدة، فقد كانت واثقة من أن المرأة لن تتخلى عنها، فليس أمامها إذن إلا أن تأمل بألا تسبب الصور التسع الباقية الأذى مثلما فعلت الأولى.

فكرت في أن لا أحد يجب أن يعلم أبداً أنها هي التي رسمت تلك الصور.

شعرت بالخوف وهي تفكر في ما قد يكون عليه غارت من غضب إذا هو اكتشف أنه بدلاً من أن يكون شاكراً لها، عليه أن يوبخها لهذه الورطة التي اوقعته فيها.

فكرت وقد تملكتها التعاسة بأن الشيء الوحيد الذي بإمكانها عمله هو أن تصلح الأمور لتنقذ ديلفين وغارت من غضب السيد شيلدون.

ولكنها كانت تفضل أن تتزوج أي شخص آخر... أي شخص في العالم... بدلاً من غارت.

وشعرت أنتيا برأسها يدور... وأصبح من المستحيل عليها أن تفكر بوضوح.

كل ما كانت تعرفه هو أن المستقبل بدا لها فظيعاً ومؤسساً على رمال متحركة.

سألت نفسها، فلنفترض أنه اكتشف الحقيقة يوماً ما؟

وتذكرت عجرفته وسأمه الواضح عندما أرغم على التحدث معها في نادي الماكس.

تساءلت كيف بإمكاني أن أحتمل كل ذلك منه بقية الحياة؟

عند ذلك سمعت أصواتاً في الردهة، فعلمت أن كلو وفيب قد عادتا.

الفصل الخامس

حدقت أنتيا إلى نفسها في المرآة وأدركت أنها لم تبد من قبل جذابة إلى هذا الحد، حتى انها تكاد تكون رائعة الجمال.

فهي حتى لم تصدق أن من تراها في المرآة هي صورتها حقاً.

كان ثوب الزفاف الأنيق الذي أرسلته إليها ديلفين من لندن، دون شك حلم كل فتاة لأهم لحظة في حياتها.

وضعت أنتيا على رأسها النقاب المتوارث في أسرة غارت جيلاً بعد جيل، وقد ثبته على رأسها تاج من الجواهر، يتألق ويلتمع مع كل حركة من تحركاتها.

«لم أكن أصدق بوجود شيء جميل إلى هذا الحد.» وكانت تايس قد هتفت بهذه الكلمات مأخوذة به.

في الواقع، بدا لأنتيا أن الأسرة بكاملها قد شعرت بالسعادة الشديدة منذ اللحظة التي أخبرتهن فيها، بأنها ستتزوج من الدوق.

لقد حدقن بها صامتات بعد أن أعلنت النبأ، وذلك بعد عودة والدتها من دانكستر.

وما لبث أن تبع ذلك الصمت ضجة وضوضاء بالغتان وهن يتكلمن جميعاً في وقت واحد حتى انها لم تعد تسمع شيئاً.

«الدوق غارت اكزمينستر؟ ولكنك لم تذكريه في رسائلك؟»

«لماذا لم تخبرينا عنه؟»

«لماذا كتمت أمره بهذا الشكل؟»

وكانت رسالة غارت إلى السيدة فورتنديل قد وصلت في الواقع، في اليوم التالي، ولكنه، في هذه الأثناء، كان قد قابل أسرة أنتيا.

كانت قد توقعت أن يكرهنه البداية، ولكنها ذهلت وهي ترى اعجابهن بشخصيته.

لقد صرخت كلو قائلة: «إنه كما ينبغي أن يكون دوق تماماً.»

قالت السيدة فورتنديل فيما بعد بصوت مضطرب: «يا للإطراء والمديح الذي قاله عن والدك، إنني واثقة يا أنتيا من أنه الزوج الذي كان والدك سيختاره لك لو كان حياً.»

مضت أوقات كان من الصعب على أنتيا فيها منع نفسها عن الصراخ لتعلن أنها تقوم بتمثيل كذبة كبيرة وأن الدوق لا يحبها، فلو ترك لها الخيار لما قبلت الزواج منه.

ولكن، لأنها كانت تشعر بالذنب، ولخوفها من احتمال اكتشاف غدرها، فقد أرغمت نفسها على المضي في تمثيل الدور المطلوب منها.

ولم يكتف غارت بأن جعل نفسه محبوباً من الوالدة والشقيقات، ولكنه أثبت كذلك اهتمام غير متوقع.

فهو لأنه أدرك أن ليس لديهن خدم، قد أحضر معه عندما جاء لتناول الطعام، طعاماً شهياً جاهزاً، ثم أصرّ على أن يقف خدمه جانب المائدة للخدمة.

ولأول مرة تتذوق تايس وكلو وفيب مختلف أنواع الأطعمة الفرنسية والطعام المحضّر بطريقة لا تشبه طريقة

الطهو المسلوق والمشوي والتي كانت كل ما تعرفه مربيّتهن.

كما أحضر لهن أيضاً من بساتين دانكستر أنواع من الفاكهة الأجنبية وكذلك حلوى الشيكولاتة الغالية وغيرها مما لم تذقه الفتيات من قبل.

وبجانب كل هذا، عندما اكتشف الدوق أن حماته المستقبلية تهتم بالشعر، أحضر لها مجلدات من أغلى مكتبات دانكستر، وقد كانت الطريقة المضمونة لاكتساب قلبها.

وحدثت أنتيا نفسها ساخرة بأنه يرشو الأسرة، تماماً كما رشتني ديلفين عندما أدركت أنني اكتشفت سرها.

ومع أن ذلك جعلها تستخف بكل ما كان يحضره إلى المنزل، لم تستطع إلا أن تعترف بأنه، في الواقع، ليس بحاجة إلى كل هذا التملق حيث أنها قد سبق ووافقت على الزواج منه.

وهكذا وجدت أنه من الصعب البقاء على برودها وبمعزل عن الاعجاب والافتتان اللذين أثارهما الدوق في نفوس شقيقاتها.

فكانت تايس تقول: «كم هو متفهم.»

وقالت فيب: «إنه يتذكر دائماً أنني أحب اللوز بالسكر، أرجو أن أجد زوجاً مثله في المستقبل.»

أما كلو، فقد دهشت عندما قال الدوق انه سيعطيها جواداً ومعه سائس ليعتني به كما سيدفع أجره.

ولم تستطع وهي ترى أغلى طموحاتها تتحقق، سوى ان تهتف بفرح: «أشكرك. أشكرك هذا أجمل شيء يحدث لي.»

رأت أنتيا ذهول غارت إزاء ردة فعل كلو، ثم ما لبث أن قال: «إذا كان شكرك لأجل منحك جواداً، بهذا الشكل، فماذا ستفعلين إذا مُنحت عقداً من الماس؟»

أجابت هازئة: «ومن يريد عقداً؟ إنني أفضّل أكثر الحصول على جواد.»

فضحك غارت قائلاً: «ستبدلين رأيك عندما تكبرين، كل النساء يطلبنّ الماس.»

ولأجل ما قاله لكلو، توقعت أنتيا أن يعطيها خاتم خطبة من الماس، والذي هو دون شك جزء من مجموعة مجوهرات أسرة اكزمينستر.

بعد أن أعلنت الخطبة وأرسل إعلان بذلك إلى صحيفة لندن غازيت، عاد غارت إلى لندن ومع أن أنتيا سرّت لرحيله، فقد وجدت من الصعب عليها أن تحتمل وحدها فضول الجيران.

فكرت ساخرة كيف أن الكثيرين الآن قد أصبحوا بعد أن خطبت إلى الدوق غارت، يدّعون معرفتها.

وأخذ يزور السيدة فورتنديل أناس لم تكن هي قد عرفتهم من قبل، كما أن الدعوات أصبحت تصل إليهم يومياً من كل أنحاء يوركشاير.

هتفت السيدة فورتنديل تقول: «ما ألطف الناس.»

فأجابت أنتيا: «ما ألطفهم؟ إنهم ليسوا لطفاء يا والدتي، فهم يتقربون الآن فقط، لأنني سأتزوج من دوق، ففي الماضي لم يهتموا بنا.»

أجابت الوالدة: «ربما كانوا يظنون اننا ما زلنا في حالة حداد على والدك الغالي.»

قالت أنتيا: «إنك دوماً تجدين الاعذار للناس يا والدتي، أنا شخصياً أحب لو ألقي بدعواتهم في النار دون أن أكلف نفسي بالرد عليها.»

«أظن ذلك سيكون في منتهى قلة الأدب، يا حبيبتي. حتى ولو كنتما أنت وغارت، لا ترغبان في قبول مثل هذه الدعوات، فمن المفيد لتايس، وكلو فيما بعد، أن يدرج أسماءهما في جدول الزيارات.»

فقالت أنتيا بصوت خشن: «لا تقلقي ستدرج اسماءهن في المستقبل.»

ولكن، أصبح من الصعب الإصرار على السخرية بعد أن تهافت كل شخص على التماس صداقتهم وابتدأت هدايا الزفاف تصل.

وسألت أنتيا وهي تفتح طرداً يحتوي على شمعدانين ثمينين: «من هم آل ليتونز، يا أمي؟»

أجابت الأم: «لا أستطيع أن أتذكر هذا الإسم، حالياً. ربما هم من أصدقاء غارت.»

«إن الطرد معنون إليّ وهم يعيشون في يوركشاير.»

فقالت الوالدة: «إذن فلا بد أن ندعوهم إلى الزفاف.»

أجابت: «من المستحيل أن يتسع المكان للمزيد من الناس.»

ولكنها وهي تتكلم كانت تعلم أن أمها ستوجه دعوة إلى آل ليتونز هؤلاء، ولن يكون بامكانها أن تمنع ذلك.

وكانت تتمنى لو لم يكن غارت مستعجلاً في الزواج إلى هذا الحد.

ولكنها كانت تعلم، حتى دون أن يقول ذلك، بأن ديلفين

هي التي تستعجله في إتمام الزواج بأسرع وقت ممكن وذلك لكي تهدىء من شكوك زوجها.

حدّد يوم الزفاف في الأسبوع الثاني من تموز (يوليو)، وقد كتبت ديلفين إلى السيدة فورتنديل تقول إنها لن تقدّم فقط لانتيا ثوب الزفاف، بل ستقدم ثياب لوصيفات العروس أي إلى تايس وكلو وفيب.

وكانت البهجة تتملك الفتيات حتى انهن لم يتحدثن بأيّ شيء آخر عدا ذلك.

وكان غارت هو الذي حمل هذه الأنباء عن كرم ديلفين عندما عاد إلى يوركشاير في زيارته الثانية.

وصل إلى المنزل عند العصر حيث كانت الأسرة مجتمعة في غرفة الاستقبال والسيدة فورتنديل تتلو عليهن شعراً نظمته بمناسبة زفاف أنتيا.

وكانت قد ابتدأت بتلاوة أول بيت، عندما سُمع صوت قرع على الباب الخارجي بقوّة، فأدركت أنتيا معه شخصية القادم، على الفور.

قالت السيدة فورتنديل: «من عسى أن يكون القادم؟»

وقبل أن تجيب أي منهن، قالت كلو: «سأذهب لأفتح الباب، انتظريني حتى أعود يا والدتي فأنا لا أريد أن تفوتني كلمة.»

ركضت نحو الباب، وكما توقعت أنتيا، هتفت كلو بسرور عندما رأت القادم.

وبعد ذلك بلحظة سمعتها تنادي: «إنه غارت، لقد عاد أليس ذلك رائعاً؟»

لقد كنّ في انتظاره، ولكنهن لم يكنّ واثقات من يوم وصوله.

والآن، وهو يدخل الصالون، رأته أنتيا ببالغ وقاره في تلك الغرفة المنخفضة السقف، وذلك الأثاث القديم الرث.

حيا السيدة فورتنديل، ثم استدار نحو أنتيا التي انحنت له احتراماً ولكنها أبقت عينيها منخفضتين كي تكشفان عن أنها الوحيدة بين الحاضرات التي لا تشعر بالسرور لرؤيته.

ولكن برودها لم يزعجه... هذا إذا كان انتبه إليه.

وعندما جلس، سلم السيدة فورتنديل رسالة ديلفين التي تصف فيها الهدايا التي سترسلها إليهنّ.

وبعد أن فرغت السيدة فورتنديل من قراءة رسالة صديقتها، قالت: «يا لها من صديقة حميمة... ورقيقة المشاعر.»

فقال غارت: «وأنا أيضاً أحضرت هدايا.» ولاحظ البريق الذي بدا في عيون تايس وكلو وفيب.

قالت فيب بصوت خافت: «لوز بالسكر.»

فقال الدوق: «لوز بالسكر وأشياء أخرى أيضاً.»

سألته كلو: «أين هي الهدايا؟»

أجاب: «ستجدينها في الردهة. وهنالك هدية خاصة جداً لوالدتك.»

فصرخت كلو: «تعالي وانظري يا والدتي، تعالي وانظري.»

تركت السيدة فورتنديل نفسها تنقاد إلى الردهة وهي تحاول الاحتجاج بينما الفضول يتملكها.

فقال غارت: «لقد أحضرت إليك أيضاً هدية، يا أنتيا.»

فقالت: «ليس ثمة حاجة منك لذلك.»

«أظن الجميع سيستغربون إذا أنا لم أفعل هذا.»

فأدركت حينذاك أنه يتحدث عن خاتم الخطبة. وإذ ظنت أنها أساءت الأدب، شعرت بالخجل.

فأخرج علبة من جيبه، وعندما فتحها لم تجد الماسات التي كانت تتوقع رؤيتها، وإنما ياقوتة رائعة الجمال.

كانت تبدو وكأن في داخلها ناراً ملتهبة، هذا بينما كانت الماسات تحيط بها.

قال: «فكرت في أن الياقوت يلائمك. إن هذا الخاتم هو ملكك وليس جزءاً من مجوهرات الأسرة.»

وأثناء كلامه، مدّ يده لتأخذ الخاتم منه، فأخذته ووضعته في اصبعها.

واستطاعت أن تقول: «أشكرك.»

قال فجأة: «أرجو أن يجعلك هذا سعيدة.»

وتمنت أن تقول إن لا المجوهرات ولا الهدايا قادرة على ذلك ما دامت السعادة لا تنبع سوى من القلب، ولكنها كانت واثقة من أنه لن يفهم.

وعلى كل حال، كيف يمكن لها أن تكون سعيدة بينما تعلم انه معجب بديلفين وانه لم يوافق على الزواج منها إلا انقاذاً لذلك الموقف؟

لحسن الحظ لم يكن ثمة مجال لقول المزيد بعد أن تعالى صوت الفتيات، للهدايا التي احضرها غارت إليهن.

كن فرحات لمجموعة الكتب الجديدة ولثياب ركوب الخيل والسوط لأجل كلو، وشال حريري لأجل تايس ومجموعة كبيرة من الأشياء الصغيرة لفيب والتي ستبقيها لشهور تتسلى بها.

وفكرت أنتيا متسائلة عمن عسى أن يكون اختار هذه الهدايا له، ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن لديه دون شك، خدماً مدربين يعرفون تماماً أي نوع من الهدايا الغالية تتوقعها منه خطيبته وأفراد أسرتها.

ثم تذكرت أنه أحضر رسالة ديلفين معه، ربما الآن، بعد أن أعلنت الصحف نبأ خطوبتهما، قد سرّ السيد شيلدون وادرك ان شكوكه لم تكن في محلها؟

وتساءلت أنتيا عن شعور ديلفين الحقيقي نحو زواج غارت.

ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها أنها مغرورة حقاً إذ تظن نفسها بهذه الأهمية. وهل من الممكن أن تضع نفسها في منزلة واحدة مع صديقة والدتها؟

ان هذه الفكرة مضحكة حقاً، فما هي سوى فأرة ريفية.

ولكنها الآن، وهي تنتظر للذهاب إلى مكان إقامة الزفاف، لم تستطع أنتيا إلا أن تعترف لنفسها بأن غارت قد أدّى دوره جيداً، وأن الشك لن يساور من يراهما وبأن ما يدفعهما إلى الزواج هو شيء آخر.

وخصوصاً والدتها وشقيقاتها، فقد كن واثقات من أن غارت قد اعجب بها منذ أول نظرة.

كانت تايس لا تنفك تسألها مرة بعد مرة: «لماذا لم تخبرينا عنه؟»

ولكن كان لدى السيدة فورتنديل الجواب لذلك: «عندما يقع الانسان في الحب، يا عزيزتي، يخشى من أن يتلفظ بأية كلمة عنه بخصوصه كي لا يضيع.»

وابتسمت لأنتيا: «إنني أعلم يا حبيبتي أن هذا ما كان شعورك، رغم أنه لا يمكن وصفه بالكلمات.»

وأطلقت آهة عميقة وهي تقول: «كان هذا شعوري نحو والدك، ودوماً كنت ادعو لكن جميعاً أن تشعرن بهذا.»

قالت أنتيا الآن تخاطب صورتها في المرآة: «وهذا ما أحب أن أشعر به.»

إن عليها الذهاب إلى مكان الزفاف خلال دقيقتين. وفي الطابق الأسفل، كان ينتظرها قائد فرقة والدها الذي جاء خصيصاً من يوركشاير لكي ينوب عن الوالد في تسليمها إلى غارت، حسب التقاليد.

كانت تعلم أن المكان المخصّص لحفلة الزفاف في يوركشاير الذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة عن المنزل، لا بد وأن يكون محتشداً الآن، ليس بجيرانهم فقط، وإنما أيضاً بأقرباء غارت وأصدقائه الذين كانوا يقيمون في البيوت الكبرى في الجوار.

وكان السيد دانكستر قد أقام حفلة في منزله لثلاثين شخصاً، وقد استطاع بعضهم أن يجد مكاناً يبيت فيه.

شعرت أنتيا، في البداية بالخجل وبشيء من الخوف من المحنة التي تنتظرها، ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن لا معنى للشعور بأي شيء عدا الواقعية الهادئة.

ان مثل هذا الزفاف، وبدلاً من أن تكون العروس فيه على عتبة حياة جديدة رائعة، لا تجده سوى بداية لزواج فاشل.

كان الأمر وكأن لا دور لها فيه، وإنما هي مجرد حبل النجاة يستعمله غارت وديلفين.

ولكن كيف لها أن تستاء من هذا الموقف وهي من تسبّبت به، خاصة أن ليس ثمة من تلومه سوى نفسها؟

وكانت السيدة همفري قد أرسلت إليها، كما كانت

وعدتها، بنسخة عن صورة تلك القطط وأخرى كانت قد نشرت في نفس الوقت.

وعندما وصلتا، أخذتهما أنتيا إلى المطبخ حيث أحرقتهما.

لقد كانت تشعر بالخوف على الدوام، وذلك من أن تنسى شقيقتاها وعدهما لها فتخبرا غارت عن موهبتها هذه.

وكانت قد جعلتهما تقسمان على ألا تتحدثا إليه عن رسومها الكاريكاتورية أو المال الذي قبضته ثمناً لها.

لقد قالت لهما: «إنه لن يسامحني قط إذا أصبحت لديه أقل فكرة عن أنه سبق لي ورسمت أي شيء كريه بهذا الشكل.»

فقالت تايس: «قد يسليه هذا الأمر كما هو الحال معنا؟»

أجابت أنتيا: «بل قد يصدمه إلى حد كبير. فحذار من كشف سري إلا إذا كنتما تريدان أن يهجرنا وأن لا يتحدث إلينا مرة أخرى.»

وكانت تعلم أن هذا تهديد فعال. ولكن، لكي تتأكد من أنه لن يكون ثمة شاهد ضدها، استخرجت من درج منضدة الكتابة، في غرفة والدتها، الرسائل التي كانت أرسلتها إليهن من لندن، ثم أحرقتها هي الأخرى.

إذ أنه حتى تلك الرسوم الصغيرة المضحكة التي كانت ترفقها برسائلها، من الممكن إذا رآها غارت، أن تكوّن لديه فكرة بأن لها علاقة، بشكل ما بالرسم الكاريكاتوري الذي كان وراء كل تلك المشكلات.

دقت ساعة الجدار معلنة لأنتيا وقت الظهيرة، وأن عليها أن تتوجه حالاً إلى مكان الزفاف.

وحيث أن منزلها كان أصغر من أن يتسع لاستقبال

ضيوفها الكثيرين، فقد كانت حفلة الزفاف والاستقبال ستقام في منزل السيد دانكستر. وكان غارت هو من اقترح منزله، حيث أن الطريق إلى الجنوب كان طويلاً، إذا هو رحل مع أنتيا بعد انتهاء عقد الزواج مباشرة.

لقد قال: «لا أعتقد أن غيابنا سيؤثر كثيراً، كما انني لا احبذ فكرة إلقاء كلمة، أو الاستماع إلى أخرى.»

فقالت أنتيا: «نعم، معك حق.»

وهكذا رتب الأمر بحيث يعودان وحدهما إلى المنزل لتناول طعام خفيف ثم لتتمكن أنتيا من تغيير ملابسها وارتداء ملابس السفر.

كان على جميع الذين حضروا الاحتفال أن يبقوا في قصر دانكستر حيث ستكون كعكة الزفاف بارتفاع ستة أقدام، وطعام فاخر سيدوم حتى العصر.

سألت كلو أنتيا: «كيف تستطيعين خسارة كل هذه الأمور.»

أجابت: «لا أظنني قد أسرّ بذلك كثيراً.»

فقالت تايس: «لا تكوني غبية. إنها تريد أن تكون مع زوجها، تماماً كما أحب أنا لو كنت مكانها.»

قالت هذا بصوت مرتجف وعينين حالمتين دون أن يخطر ببالها أن شقيقتها الكبرى تخشى تلك اللحظة كثيراً.

وأخذت تتساءل بذعر عما ستقوله له. ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها انه من الضروري أن تتصرف بشكل طبيعي جداً دون أي ارتباك.

وتناولت باقة من الورود والزنابق ثم استدارت تغادر غرفة النوم، فتألقت الماسات على رأسها وغمرتها أشعة الشمس المتدفقة من النافذة.

فقالت تحدث نفسها، إنني أمثل دوراً في مسرحية، والشيء الوحيد والهام، هو أن أثبت أنني ممثلة ماهرة.

* * *

وصل السيد والسيدة اكزمينستر إلى منزل الماركيز أركسي بعد الساعة الخامسة بقليل.

كان المنزل القائم وسط حديقة واسعة يمثل هندسة العصر الأليزابيتي بشكل ملحوظ، وبدا رائعاً عندما دخلت العربة التي تجرها أربعة جياد، والتي كان يقودها الدوق منذ ان ترك المنزل، وعبر الجسر الذي فوق البحيرة.

قالت أنتيا: «إنه منزل كبير للغاية.»

فأجاب الدوق: «لقد أضيف إليه الكثير على مرّ السنين. ولكن أركسي قد أعاد زخرفة العديد من الغرف حديثاً وأظنك ستجدينه مريحاً للغاية.»

فقالت باسمة: «أتصور طبعاً أنه أكثر راحة من أيّ فندق ننزل فيه.»

فقال الدوق: «إنني أكره الفنادق.»

أجابت: «لا أتصورك معتاداً على الاقامة فيها كثيراً، عندما سافرت إلى لندن بالعربة العمومية كنت خائفة جداً مما قد يواجه المسافر العادي في مثل تلك الأماكن.»

فسألها بدهشة: «هل سافرت بعربة عمومية؟»

أجابت: «إننا، لسوء الحظ، لم نظن أن الجواد دوين سيتمكن من إكمال الرحلة.»

وإذ كان الدوق قد سبق ورأى دوين، فقد ضحك بينما قالت أنتيا: «إنك تنسى دائماً أنني ساندريلا، أم لعلك تفضل أن تكون الملك وأنا الفتاة المتسولة؟»

فقال بصوت تشوبه نبرة جفاء: «لا أظنك تمثلين أياً من هاتين، حالياً.»

وكان لا بد لها من الاعتراف بأنه على حق، فقد كانت تبدو كأميرة في قصة خرافية بمعطف السفر الوردي المصنوع من الساتان الذي ترتديه والذي أرسلته إليها ديلفين صديقة والدتها مصحوباً بقبعة ذات حوافٍ عالية يتلاءم مع المعطف.

على كل حال، فقد وجدت نفسها تعود إلى التفكير وهي تدخل ردهة القصر، في أن كل شيء أشبه ما يكون ببرنامج مسرحي وأن كل ما تفعله أو تشعر به، ما هو إلا تمثيل.

كان القصر رائعاً يؤثر في النفس، وعندما وجدت ثلاث خادمات في انتظارها في غرفة النوم الخاصة البالغة الاتساع، وقد أخبروها أن الملكة اليزابيت كانت رقدت فيها مرة، فرأت في ذلك مشهداً آخر من المسرحية.

بعد أن بدلت ثيابها، هبطت السلم إلى الصالون، كانت على وشك أن تتوقع متفرجين يقابلونها بالتصفيق.

كان الدوق في تلك الاثناء ينتظرها في الغرفة الواسعة التي تطل على حديقة زرعت بالورود، وكانت هناك أبواب مستطيلة تنفذ إلى شرفة.

وجدته يقف قرب احدى النوافذ وانظاره متجهة الى الحديقة، لم تتكلم، ولكن لا بد أنه أحس بوجودها لأنه استدار إليها وعلى شفتيه ابتسامة، قائلاً: «إنك دقيقة في مواعيدك، هل أستطيع القول انني أفضل هذه الميزة عندك؟»

فسارت نحوه باسمة إلى حيث وقف الاثنان عند النافذة يجيلان النظر في الحديقة.

وقالت: «لشدّ ما أحب الورود، وأنا واثقة من أن ليس هناك ما هو أجمل من حديقة انكليزية مثل هذه.»

قال: «أتريدين أن تقولي إنك تفضلين قضاء شهر العسل في انكلترا؟»

أجابت: «كلا بالطبع، إنك تعلم كم تملأني البهجة لفكرة زيارة موقع معركة واترلو. كما أن هذا يعني الكثير بالنسبة لوالدتي.»

فقال: «إنني مسرور لكون هذا يسرها، ثم إنني أريد أن أريك ليس فقط المكان الذي قتل فيه والدك وإنما ايضاً المكان الذي كنت أحارب فيه.»

«علمت بأنك نلت وسام واترلو.»

«سأريك إياه عندما نذهب إلى لندن.»

ابتعدت أنتيا عن النافذة واتجهت نحو رف المدفأة. كان الصالون في غاية الأناقة، ولكنه من الطراز الكلاسيكي، ففكرت كيف انها وغارت متمسكان بالشكليات أكثر من اللازم.

قال غارت: «أظن يجب أن أخبرك كم يناسبك هذا الثوب. فهو يزيد من تألق عقد الياقوت حول عنقك.»

فرفعت أنتيا يدها إلى عنقها، وقد تذكرت العلبة التي وصلتها في الصباح الباكر والتي تحتوي على عقد من الياقوت ينسجم مع خاتمها.

قالت: «آسفة لأنني لم أشكرك، وهذا غباء مني. ولكن كان هناك الكثير مما يشغل ذهني.»

فقال: «طبعاً، فالشخص لا يتزوج مراراً عديدة.»

هتفت أنتيا: «هذا صحيح، تصور ان مثل هذا يحدث للشخص كل عام، أو كل خمسة أعوام على الأقل.»

فقال: «علينا ان ننتظر مرور خمسة وعشرين سنة لحلول اليوبيل الفضي لزواجنا.»

فقالت في سرّها، يا لها من فترة طويلة، ولكنها قالت بصوت عالٍ: «لا أتصور أننا، بعد كل هذه الهدايا التي تلقيناها، قد نحتاج إلى المزيد من الفضة. ماذا سنفعل بأكثر من خمسين طبقاً للمقبلات.»

ضحك غارت لهذه الفكرة، ولكن أنتيا تذكرت فجأة أنها كانت باعت صورة كاريكاتورية تمثل السيدة يورك مع كلابها المائة، وأحدها يشكو من أنه لم يجد صحنه.

شعرت بالارتباك وهي تتذكر هذا، لكنها انقذت من هذا الموقف عندما أقبل رئيس الخدم معلناً أن العشاء جاهز.

دخلا غرفة الطعام حيث كان الطاهي قد تفنّن في تجهيز مختلف أنواع الأطعمة الشهية التي تفوقت على أي طعام كانت قد تناولته أنتيا في لندن.

قال غارت: «لقد اجتزت أحداث هذا النهار بنجاح تام. لا اعتقد ان احداً غيرك كان بامكانه التغلب على تلك المواقف الصعبة بهذه القدرة.»

ودهشت لنبرة الاخلاص التي تجلت في صوته، وشعرت بالدم يصعد إلى وجنتيها وهي تقول: «ها أنت ذا تحرجني. وأرى أنك تصرفت أنت أيضاً بقدرة قوية، هذا مع أنك عريس بالرغم منك.»

قطب الدوق جبينه وكأنه اعتبر قولها هذا يخلو من اللباقة، ولكنه قال بعد صمت قصير: «أشعر وكأننا بدأنا رحلة الاكتشاف. فنحن في الحقيقة لا يعرف أحدنا سوى القليل عن الآخر، ونادراً ما جلسنا معاً على انفراد قبل الآن.»

ثم ابتسم وهو يضيف قائلاً: «لقد كانت شقيقاتك، ولو دون قصد، يحطنك بالعناية البالغة.»

قالت: «إننا دوماً نقوم بالاشياء معاً، وفي الواقع أشعر الآن بأنهن يشعرن بالكآبة لعدم وجودهن معي.»

قال متهكماً: «أظن أننا سنتعرض للانتقاد الشديد لو اننا سافرنا إلى فرنسا مع شقيقاتك الثلاث.»

فقالت بشيء من الكآبة: «كم يأملن رؤية موقع المعركة.»

قال غارت: «قد نأخذهن في وقت آخر.»

لمعت عيناها وهي تقول: «هل تعني ذلك حقاً؟» ولكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأنه إنما كان يجاملها في الحديث ليس إلا، إذ أنه ما أن يفرغ من شكليات الزواج التقليدية، حتى يعود إلى لندن، بينما تبقى هي في الريف، أو في أيّ مكان آخر شرط ألا تفرض نفسها على حياته الخاصة.

وإذ شعرت بالكآبة من هذه الفكرة، قالت بسرعة: «أتريدني أن أتركك أثناء تناولك الشراب؟»

أجاب: «أرجو ألا تفعلي شيئاً من هذا النوع. لا أريد أي شراب، ولكنني سأطلب من رئيس الخدم إحضار إبريق من العصير إلى الصالون.»

نهضت تسير أمامه مجتازة الممر الطويل نحو الردهة. وأثناء ذلك، كانت المرايا على جانبي الممر تعكس صورتيهما معاً.

كان شعورها بأن تمثيلهما للمسرحية يقوى، وكأن الصالون بثرياته البلورية المضاءة هو عتبة المسرح، بينما كانت الشمس في الخارج تأذن بالمغيب.

وحيث أنه لم يكن من حديث بينهما، أخذت تسير في

أنحاء الغرفة تتفرج على التحف الفنية، فهتفت بإعجاب للعلب المرصعة بالأحجار الثمينة، وللصور التي تمثل أسلافه في مختلف العصور، وللتحف الفنية المذهلة المصنوعة من الخزف الصيني.

قال غارت: «لديّ في منزليّ الكائنين في لندن والريف الكثير من النفائس والتي اعتقد انها ستسرّك هي أيضاً.»

قالت: «لقد كانت والدتي تحدثني عن النفائس الثمينة التي يملكها النبلاء، ولكن من الصعب أن يتصورها المرء دون أن يراها.»

قال: «هذا صحيح. انما رؤيتها فقط لا يعني بالشعور بها.»

فقالت: «نعم، ففي الواقع، المرء يقرأ عن مشاعر الناس من حزن وسعادة، والحب طبعاً، ويتساءل عما سيشعر به لو جربها بنفسه.»

قال غارت: «ويصاب عادة بخيبة أمل.»

فسألته: «خيبة أمل؟»

«خصوصاً بالنسبة إلى الحب.»

نظرت إليه بشك، ثم سألته: «ولكن أليس الحب هو بحد ذاته شيء رائع؟»

أجاب: «إن المرء لا يجده أبداً كما يتوقعه عادة.»

فهتفت: «ولكن يجب ألا تقول ذلك، كما ان هذا يعني، أنك لا تثق بالحب في الحقيقة، فوالدتي تقول إن حبها لوالدي، كان أجمل مما كانت تعتقد أنه سيكون.»

فقال الدوق: «ربما كانت محظوظة جداً.»

ألقت أنتيا عليه نظرة غير واثقة، وتساءلت عما إذا كان تشاجر مع ديلفين.

ولأنها لم تنم الليلة الماضية إلا قليلاً، ولأنها كانت تشعر بتعب بالغ، اقترحت بعد فترة من الحديث، أن تذهب إلى غرفتها.

فقال: «طبعاً، فأمامنا رحلة طويلة أخرى سنقطعها غداً، ولهذا أرى أن ترتاحي لتنهضي باكراً.»

فقالت باسمة: «إذن، فسأذهب إلى غرفتي حالاً.»

رافقها إلى الردهة حيث كان هنالك خادم ينتظر ليعطيها الشمعدان الفضي.

ونظراً لوجود الخادم، شعرت بالحرج من أن تقول لغارت تصبح على خير، ولهذا اكتفت بالابتسام له بخجل ثم اتجهت نحو السلم.

مرة أخرى شعرت وهي ترى الخادمات بانتظارها في الغرفة، بينما الشموع مضاءة على جانبي السرير الضخم ذي الستائر المسدلة، بأن كل ذلك ليس سوى جزء من مسرحية تمثلها.

بدّلت ملابسها، ثم دخلت سريرها بينما أطفأت الخادمات الشموع ما عدا اثنتين على جانبي السرير، وعندما أغلقن الباب خلفهن، أخذت أنتيا تنظر حولها.

وفكرت في مبلغ ما تشعر به من دهشة لرؤية مثل هذا المنزل الرائع، وكذلك لسفرها الوشيك إلى خارج البلاد.

تنهدت بشيء من السعادة وهي تحدث نفسها مؤنبة أن ليس ثمة ما يخيف، فلقد مرّ الزفاف بهدوء، كما كان غارت حسن الطباع، وفي الواقع، كان كل شخص في الحفل سعيد.

وأخذت تفكر كم بدت شقيقاتها جميلات في أثوابهن.

فقالت: «إنني... إنني تزوجتك... لإنقاذ صديقة والدتي، ولكنني لم أفكر قط... ولم أحلم قط أنه متوقع مني أن أكون... زوجة حقيقية لك.»

قال غارت: «لقد كنت أرجو ألا تشعري بمثل هذا الشعور لأنه، ببساطة سيجعل من علاقتنا في المستقبل في منتهى الصعوبة، إن لم تكن مستحيلة بالنسبة إلينا نحن الاثنين.»

فقالت: «لكنني... اعرف انك لن تفكر بي.»

وخيّل إليها أن غارت تسمّر في مكانه لحظة، قبل أن يرد عليها قائلاً: «بل ستكون أفكاري معك لأنك أنت.»

فقالت: «لا أظن هذا ممكناً.»

خيّل إليها أنه غاضب، ولكنها لم تهتم، ومضت تقول: «إن الأمر سيكون شبيهاً بما اعتادت مربيتي أن تقوله وهي تحثني على تناول دواء كريه عندما كنت طفلة إذ تقول لي أن أسدّ أنفي حتى لا أشعر بطعمه، ولكن هذا لم ينفع.»

فلم يستطع غارت أن يمسك نفسه من الضحك وهو يقول: «هذا، في الواقع، تشبيه خاطىء تماماً، يا أنتيا.»

قالت: «بل أظنه مناسباً تماماً. وأظن... أنك مخطىء في... طلبك هذا.»

«لقد كنت افترض أنك ستنظرين إلى هذا الأمر بتعقل.»

أجابت: «ليس الموضوع هو أن أكون متعقلة، وإنما هو أنك صديق ديلفين.»

وقف غارت وسار نحو المدفأة، ثم عاد إليها مرة أخرى وقال: «لم أتصور لحظة أن هذا ما سيكون شعورك.»

فقالت: «لا أدري ماذا توقعت... أن أشعر به. وكل ما

أعرفه انك كنت سخياً مع والدتي وشقيقاتي... ومعي ايضاً. ولكنني... لا أحبك... وكيف... أستطيع ذلك؟»

قال: «ليس الحب ضرورياً جداً للزواج، إنك زوجتي وتحملين اسمي، وكل ما أراه هو أن نسير في حياة زوجية طبيعية.»

سألته: «وكيف ستكون... طبيعية، بينما اعرف انك تتمنى لو أنك... مع غيري؟»

فقال بحدة: «أرى من المستحيل أن أجعلك تفهمين ما أقول.»

فلم تجب. وبعد لحظة عاد يجلس على الكرسي إلى جانب السرير ويقول: «لا أريد أن تظنيني ساخطاً أو مستاءً... فأنا لست كذلك. كل ما في الأمر هو أنني انظر إلى هذا الأمر من وجهة نظر الرجل، وأنت من وجهة نظر المرأة.»

فقالت بصوت خافت: «إنني... آسفة... آسفة جداً جداً، حيث انك في منتهى الكرم نحونا جميعاً، ولكنني لا أستطيع ذلك... لا أستطيع صدقني.»

نظرت إليه وهي تتابع قائلة: «أرجوك، حاول أن تفهم، إنني سأفعل أي شيء تريده مني سوى هذا. إنني سأعتني بك... سأطيعك... ولن ترى مني أي غضب أو بكاء لأنني أعلم أنك تكره ذلك. ولكن أرجوك... لا... لا تقترب مني.»

نظر إليها غارت لحظة طويلة، وبالرغم منها لم تستطع أن تبعد نظراتها عنه. ومع أن التوسل كان في عينيها إلا أنها شعرت وكأن الأمر كان صراعاً بين إرادتين.

فقال مستسلماً: «حسناً جداً، يا أنتيا. سأكون كما ترغبين. سأنام في غرفتي الخاصة.»

www.liilas.com

فقالت: «أشكرك... أشكرك جداً.. وأرجوك... حاول أن تفهمني.»

قال غارت: «إنني أحاول ذلك.»

تنهدت أنتيا وقالت: «كما سبق وقلت لك... إنك أكثر شهامة مما توقعتك أن تكون.»

نهض واقفاً وعندما شرع في مغادرة الغرفة قالت: «هل أنت... غاضب جداً... مني؟»

أجاب: «قد أكون خائب الأمل أكثر مما أنا غاضب.» ثم خرج من الغرفة واقفل الباب خلفه.

وحده فاضيه

الفصل السادس

شعرت أنتيا بسعادة وهما يغادران بروكسل نحو الساحة التي جرت فيها معركة واترلو، لقد كانت سعادة لم تشعر بها من قبل. كما بدا لها أن كل يوم تمضيه مع غارت، يصبح الحديث معه أكثر سهولة.

لقد كانت شعرت بنفسها، صبيحة زفافهما، بأنها محرجة ومقيّدة، وكانت قد حدثت نفسها بأن أسوأ ما يمكنها عمله هو أن تقيم بينهما جداراً يجعل من المستحيل عليها أن تتحدث إليه بشكل طبيعي.

كان كل شيء سهلاً رغم انها لم تكن متأكدة من ذلك، لتجد بعدها غارت يسرع بسفرهما إلى أوروبا.

لقد أمضيا ليلة واحدة في كل منزل حيث قدموا لهما الضيافة على أكمل وجه. وبما أنهما كانا يصلان متأخرين في المساء، ويغادران مبكرين في الصباح، كانا يشعران بالتعب على الدوام، كما لم يكن هناك وقت يسمح لهما بالسأم من التحدث إلى بعضهما.

وكان الجو حاراً مشمساً، وكان غارت يقود عربته الخاصة بنفسه احياناً.

أما عربة السفر فقد كانت إما تسبقهم بالأمتعة فيكون كل شيء جاهزاً في انتظارهما عند الوصول، أو تكون خلفهما غير بعيدة كي يستقلانه عندما يتعب غارت من قيادة عربته.

كان موكبهما الذي يتألف من أربعة من الخيّالة، مدهش المظهر، فكانت أنتيا تسرّ بالتأثير الذي كانوا يتركونه كلما كانوا يمرون في القرى الصغيرة حيث يصطفّ الناس للنظر إليهم بذهول تام.

أمضوا ليلة واحدة في منزل غارت في لندن فرأت أنتيا أنه كان مليئاً بالنفائس التي كان قد حدثها عنها، ولكن ضيق الوقت لم يسمح لها بتفحصها جميعاً.

لقد ذهبت إلى غرفتها حال انتهائهما من تناول العشاء، ليغادرا في الصباح الباكر إلى دوفر حيث كان عليهما أن يبحرا في مركب غارت الخاص وحيث انها لم يسبق أن سافرت بهذه الوسيلة، فقد كانت خائفة من دوار البحر.

لقد حدثت نفسها قائلة: «حتى ولو لم يكن الدوق يحبني، إلا أن منظري وأنا مصابة بدوار البحر سيكون أبعد شيء عن الكرامة والشاعرية.

ولكن البحر لحسن الحظ، كان هادئاً، ولم يكن ثمة سوى النسائم تهب من الناحية المناسبة لتدفعهما عبر القنال.

لم تستطع أنتيا اخفاء حماسها وابتهاجها إزاء ما كانت تراه من مناظر جديدة عليها، ما وجد غارت نفسه تتجاوب مع ذلك، والأكثر من ذلك انها جعلته يضحك.

وكانت أنتيا، وهي التي كانت قد صممت على أن تكون طبيعية مع غارت، تتابع التصرف معه وكأنه أحد أفراد عائلتها أو ربما الأخ الذي لم تحظ به من قبل.

كانت من الحكمة بحيث تذكرت أمرين، الأول هو أن الرجل يحب دوماً أن يقدم النصح والإرشاد، والثاني هو

أنها كما كانت تجد التسلية والترفيه في أحاديث السيد تشيل، فكذلك يمكنها أن تسلي وترفه عن غارت وبنفس الطريقة.

وطبعاً، لم يكن ذلك برواية حكايات المجتمع، ذلك العالم الذي يعرفه هو اكثر منها، ولكن عن الحياة التي ألفتها والتي كان بإمكانها دوماً أن تحمل شقيقاتها على الضحك منها.

ولأن ذلك كان يصدر عنها بشكل طبيعي، فقد كان تمثل شخصيات الناس الذين كانت تتحدث عنهم، مثل السيدة ريدجواي العجوز، متسولة القرية، والكولونيل الذي غالباً ما كان يجد من اسئلة فيب الدقيقة، احراجاً له، والمزارعين الذين دوماً على خلاف مع جامعي الإيجارات، هذا إلى آلاف من مشاهد الحياة الريفية.

حتى انها تحدثت عن الغلام بائع الطيور الذي كان يجول حول القرية يغني اغان لا نغم لها، وكان الدوق يجد تسلية كبرى في ما كانت أنتيا تحدثه به.

كان شهر العسل هذا شيئاً جديداً بالنسبة إليه كما كان بالنسبة إليها، وهذا رغم عدم إدراكها ذلك. وعندما وصلا إلى بروكسل، وجد غارت فيها تلميذة شديدة الإنتباه تستمع إلى كل ما يقوله بعينين دهشتين دون الكف عن إلقاء الاسئلة الذكية.

لم يكن قد احضر معه جياده الخاصة، ولكنه كان أرسل أمامه سائس، لم يستأجر لهما منزلاً رائعاً فقط، ولكنه تمكن من ان يحصل على بعض الجياد الممتازة لاستعمالها الشخصي.

وهذا الصباح، كان الدوق قد قال لها: «أرى من الأفضل أن نذهب إلى ساحة المعركة على صهوة جوادين.»

أجابت: «هذا ما أفضله، رغم انني لم أمتطي صهوة جواد نشطاً منذ زمن بعيد، ولهذا أرجو ألا اجعل من نفسي مبعث سخرية.»

فقال يطمئنها: «سأهتم بأن لا يكون الجواد الذي تمتطينه بالغ النشاط.»

وعندما جيء بالجياد، أعجبت أنتيا بالمهر الكستنائي اللون الذي جهز خصيصاً لها.

أما غارت، فكان يمتطي صهوة جواد قوي يثب بكثرة، كأنه بحاجة بشدة إلى التريض.

أخذ يقفز في الطريق، مجفلاً من المارة، ولكنه سرعان ما وجد أن من يمتطيه مصمم على السيطرة عليه، وبالتالي لا يملك الفرصة للتصرف حسب رغبته.

وأدركت أنتيا أن غارت كان يستمتع بمعركته مع جواده وقد بدا السرور على وجهه بشكل واضح.

وكانت ديلفين قد اضافت للجهاز الذي ارسلته إليها ثوب لركوب الخيل يماثل بلونه، الياقوت الذي تتحلى به.

كانت تبدو بذلك بالغة في الأناقة، ومع ان ملامح وجهها كان فيها شيء من الجد وهي تركز اهتمامها على الجواد أثناء تنقلاتهما في أنحاء المدينة، إلا ان غارت كان يعلم أنها كانت تشعر بالسعادة الشديدة.

جعلها ترى المنزل في شارع بلانشيسيري والذي كان السيد والسيدة ريتشموند قد استأجراه قبل المعركة والذي كانا اقاما فيه حفلة أحياها السيد بيرون في أشعاره.

سألته: «لماذا أراد السيد والسيدة ريتشموند إقامة هذه الحفلة؟»

أجاب: «لأن القائد ويلنغتون كان يعتقد أنه من الحكمة ان يبدو امام الناس غير قلق وبأنه يحيا حياة طبيعية تماماً.»

ابتسم الدوق وهو يتابع قائلاً: «كنت موجوداً عندما قالت السيدة ريتشموند يوماً للقائد ويلنغتون: «لا أريد ان انتزع منك أسرارك، ولكنني أريد ان اقيم حفلة، وكل ما أريد معرفته هو، هل بإمكاني أن اقيمها؟»

أجابها: «يمكنك أن تقيمي حفلتك بأمان تام ودون خوف من أن يفسدها عليك شيء.»

فصرخت أنتيا: «ولكنه كان مخطئاً.»

قال: «لم تكن العمليات الحربية متوقعة قبل الأول من تموز (يوليو).»

«اخبرني عن الحفلة، هل كانت مسلية جداً؟» وابتسمت.

أجاب: «كانت قاعة الاحتفال قد تحوّلت إلى ما يشبه الخيمة بالستائر التي غطت الجدران ذات الألوان الملكية كالقرمزي والذهبي والأسود. وكانت الأعمدة تلتف حولها الشرائط الحريرية وأوراق النباتات والأزهار.»

فهتفت أنتيا: «كم أتمنى لو انني كنت موجودة هناك.»

فتابع يقول: «ان مصابيح بيرون كانت في الواقع أروع من الثريات البلورية، وكان في الحفل الجنود الشجعان وعلى رأسهم الأمير أورانج، وطبعاً القائد ويلنغتون نفسه.»

لقد سبق لها وان علمت، أن غارت كان من جملة ضباط القائد ويلنغتون.

فسألت انتيا: «وهل كنت معه؟»

أجاب: «نعم، كنت معه، كما كنت بجانبه عندما علم القائد بأن الفرنسيين أوقفوا تقدم البروسيين على مسافة أقل من ثمانية أميال من كواتر برا، وكان البروسيون بقيادة المارشال بلوخر سينضمون إلى البريطانيين في كواتر برا ولكن نابوليون كان على كل حال، قد شرع في التقدم قبل الوقت المنتظر منه بكثير.»

فقالت أنتيا: «كم هذا مخيف، وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لقد انتشر الخبر بسرعة في أنحاء القاعة مفاده أننا سنرحل عند الصباح. وهكذا أسرع اكثر الضباط في التوديع مغادرين، أما أنا فقد انتظرت قائدي.»

حبست أنتيا انفاسها وهي تسأله: «وهل كنت خائفاً؟»

أجاب: «كلا، مطلقاً، فقد كنا جميعاً في غاية اللهفة للاشتباك مع الفرنسيين.»

تركا المدينة، وعندما اقتربا من ساحة المعركة، لم تدهش أنتيا وهي ترى الرجال، وحتى النساء، يفتشون عن التذكارات.

كانت قد علمت أن هناك عربات في السوق تعرض للبيع الرصاصات، والأزرار، والشارات بالاضافة الى البزات العسكرية.

وكان غارت قد اخبرها بأن المئات من الزوار الإنكليز يجيئون إلى بلجيكا كل شهر منذ انتهاء المعركة، وذلك للتجوّل في الأنحاء للتفرج ولشراء مثل تلك الأشياء.

ولكن أنتيا لم تكن لتهتم لشيء عدا المعركة نفسها، وكان

غارت يحدثها كيف مضت عليهم أيام ثلاثة وهما يعانون من المطر المستمر.

وتابع يقول: «مازلت أتذكر مقدار الصقيع الذي كنا نشعر به عند تقاطع الطرق المؤدي إلى كواتر برا، وذلك في الساعة السادسة صباحاً بتاريخ السابع عشر من حزيران حيث كنّا ننتظر أخبار المعركة في كوخ صنع من فروع الشجر وتملأه تيارات الهواء المثلج.»

وازداد صوت غارت عمقاً وهو يقول: «وعند ذلك علمنا بالوحشية التي عوملت بها القوات البروسيه قبل حلول الليل مباشرة، وكانوا قد ابتدأوا بالإنسحاب نحو وار ذلك الصباح، إلى مسافة ثمانية عشرة ميلاً.»

لمست أنتيا من نبرة صوته، ما كانوا قد شعروا به جميعاً ذلك الحين من توجس وخيبة أمل.

فسألته: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

أجاب: «لقد انسحبنا إلى الشمال إلى مسافة نصف الطريق المؤدية إلى بروكسل. وكنا لم نعرف النوم منذ اليوم السابق حيث كنا نقاتل في سبيل الاحتفاظ بـ كواتر برا.»

سكت غارت لحظة قبل ان يستمر قائلاً: «كنا جميعاً مبتلين بالماء، ولطّخت الأوحال العديد من الجنود لدرجة انه كان من الصعب تمييز بزاتهم العسكرية.»

ووصلت أنتيا وغارت إلى سفح جبل سانت جان حيث أقام ويلنغتون مركز قيادته في قرية واترلو.

ومن هناك، أخذ غارت ينظر إلى ساحة المعركة وكأنه كان يرى احداثها تجري مرة أخرى. وهو يحدثها عن القتال المستميت الذي دار هناك.

قال: «لقد استمر المطر ينهمر دون انقطاع، وغطت الأوحال الأرض، وكما كانت جنودنا تقاسي من البلل والتعاسة، فكذلك كانت جنود الفرنسيين.»

وتابع يقول: «لقد علمنا فيما بعد بأن نابوليون كان قد قال بكل ثقة ان البروسيين والانكليز لن يتمكنوا من الانضمام إلى بعضهما قبل يومين، وهكذا قرر ان يفاجيء ويلنغتون بالهجوم. لقد قال لجنوده، بأن المعركة القادمة ستنقذ فرنسا وسيحتفل ذكراها في أنحاء العالم كل عام.»

فسألته: «متى ابتدأت المعركة في الواقع؟»

«لقد كان هناك قتال مستميت في منتصف النهار، وذلك لأجل هوغو مونت. ثم تأزم الموقف، ولكن الكثير منا ممن قاتلوا مع ويلنغتون في اسبانيا والبرتغال، كانوا موجودين، فجاءهم الأمر بالتقدم خلال تسعين ثانية.

تنهد وهو يتابع: «لقد كان النقص في عدد الجنود في اللواء، قد وصل إلى الف واربعمائة بعد القتال الذي دار في كواتر برا، ولكن قوات غوردون والفرقة الرابعة والأربعين ألقوا بانفسهم على الثمانية آلاف جندي فرنسي يحاربونهم بالسلاح الأبيض... ثم...»

سكت برهة ثم عاد يقول: «وإذ ترنحت قوات غوردون تحت وطأة القوات الفرنسية، رأوا اعداداً ضخمة من الجياد تهدر خلفهم وتصدر عن راكبيها اصواتاً مخيفة.»

فقالت أنتيا بصوت يقرب من الهمس: «وكان اولئك هم الخيّالة الاسكتلنديون.»

«لقد اكتسحوا المكان كإعصار مجنون وشنّوا هجوماً لم تقم اي فرقة من الفرسان الانكليزية مثله من قبل.»

وشعرت أنتيا بعينيها تغرورقان بالدموع وهي تفكر في ان والدها كان من بينهم.

تابع غارت يقول: «ومن خلفهم جاءت فرقة الفرسان الثقيلة، وعندما أعلن النفير بدء الهجوم سمعت شخصاً يصرخ، إلى باريس، فاخترقوهم كالسيل الجارف والأرض تهتز من تحت اقدامهم.»

أغمضت أنتيا عينيها. وتصوّرت قوات الحرس الملكي وعلى رؤوسهم الخوذات التقليدية ذات الريش والعرف الذي يشبه عرف الحصان والذي صممه أمير الدولة، حتى انها كانت تسمعهم يرعدون ملقين بأنفسهم داخل خطوط العدو إلى ان ابتعد الفرنسيون هاربين.

وارتفع صوت النفير ليلمّ شملهم، ولكن أحداً لم يستمع، لقد تعطّلت خمسة عشر مدفعاً من مدفعية نابوليون الضخمة، بينما جلس رجالها على عرباتها وبكوا.»

«ولكنهم توغلوا في هجومهم بعيداً.» تمتمت أنتيا بذلك وهي التي كانت قرأت قصة معركة واترلو ألف مرة.

فقال غارت: «لقد كان الوادي بأكمله خلفهم يموج بالجنود الفرنسيين بعد ان قطعنا عليهم خط الرجعة.»

«وهكذا كان نصرنا ساحقاً.»

قال غارت: «بالرغم من الإصابات الفادحة، لم يسبق قط لسلاح الفرسان ان شتت صفوفاً ضخمة منتظمة للمشاة بذلك الشكل.»

«هكذا كان والدي تمنى ان يموت.»

وإذ لم تكن أنتيا تريد أن يرى غارت الدموع التي انحدرت على وجنتيها، همزت جوادها تحثّه على التقدم.

كانت تفكر في انها تسير على نفس الأرض التي سار عليها والدها أثناء ذلك الهجوم الوحشي العنيف الذي فقد فيه ألفان وخمسمائة من سلاح الفرسان حياتهم.

لحق بها غارت ولم يصل إلى جانبها إلا بعد أن مسحت دموعها.

قال بهدوء: «في هذا المكان الذي نقف فيه بالضبط، وكان ذلك عند العصر، التفت ويلنغتون إلى احد رؤساء حرسه ليسأله عن الوقت. فأجاب هذا بأنها الرابعة والثلث. عند ذلك قال ويلنغتون: «لقد كسبت المعركة، فإذا وصل البروسيون بسرعة، تكون الحرب قد انتهت.»

سكت غارت برهة ثم عاد يقول: «وما ان انهى كلامه، حتى سمعنا صوت مدافع البروسيين.»

«وهل كانت هذه النهاية؟»

أجاب غارت: «بل بعد ذلك بعدة ساعات. وفي الواقع ليس قبل الساعة الثامنة مساء، وقد كان جيشنا قد أصبح عدده، ما يقارب الخمسة وعشرين ألفاً. وكان الفرنسيون في حالة اضطراب بالغ ولكنهم لم يكونوا قد انهزموا بعد.»

فسألته: «وهل ساوركم القلق؟»

«لقد سارت الأمور بشكل خاطىء، إذ لم يكن البروسيون قد تمكنوا بعد من الوصول إلينا، ومع ذلك، أظن ان كل جندي كان واثقاً من ان ويلنغتون لا يمكن أن ينهزم.»

«وماذا جرى؟»

«حوالي الساعة السابعة والنصف مساء، كان ويلنغتون

ممتطياً جواده في مركز قيادته قرب تلك الشجرة، وكانت اشعة شمس الغروب تظهر على ملامح وجهه الإرتياح الذي لا يمكن وصفه أو نسيانه.»

«ما الذي كان يحدث؟»

«كان بإمكاننا أن نرى عن بعد، الجناح اليميني للجيش الفرنسي وقد حاصرته النيران من كل جانب، وعند ذلك صرخ شخص ما: لقد تمكنوا الآن من الوصول.»

تابع كلامه بعد قليل: «كانت تلك اللحظة الحاسمة، وكان كل جندي حينذاك، يدرك ذلك، لقد سمعت أحد القادة ينصح بتخفيف القتال، ولكن رأي ويلنغتون كان غير ذلك، فقد هتف قائلاً: «تباً، ما دام المرء ابتدأ شيئاً فعليه أن ينهيه بأي ثمن. وخلع قبعته ثم اخذ يلوح بها نحو الفرنسيين ثلاث مرات، وفهم الجميع إشارته تلك على الفور.»

سكت الدوق لحظة عاد بعدها يقول: «لقد انطلق صراخ الابتهاج والارتياح بشكل يصم الآذان عندما انقض سلاح الفرسان الخفيف على الساحة.»

فسألته: «وهل كانت هذه النهاية؟»

أجاب: «لا شيء استطاع عندها أن يوقف رجال ويلنغتون، لقد شكل نابوليون احتياطياً من سلاح حرسه القديم ليتمكن من إيقاف ذلك السيل الجارف، ولكن ذلك كان مستحيلاً، وفي النهاية، بالكاد وجد نابوليون وقتاً ليهرب فيه إلى برلين التي كانت تحت سيطرته وذلك قبل ان يأسره البروسيون.»

تنهدت انتيا بعمق، لقد أعاد غارت كل ما حدث الى ذاكرتها، بينما تابع: «كانت الساعة التاسعة مساء من يوم

الأحد، الثامن عشر من حزيران، وقد أرخى الليل سدوله تقريباً، عندما اتجه المارشال بلوخر وويلنغتون، إلى الأمام، ليحيي كل منهما الآخر.»

«وهكذا انهزم نابوليون نهائياً.»

«ولكن بثمن فادح.»

فهمست أنتيا لنفسها: «والدي.»

قال غارت: «وخمسة عشر ألفاً آخرون من البريطانيين.»

فهتفت: «لشد ما أكره الحرب.»

قال: «وهكذا كان شعور القائد ويلنغتون، لقد قال عند ذاك: أتمنى أن تكون هذه آخر معاركي، ما أسوأ أن يحارب المرء على الدوام.»

استدارت أنتيا بجوادها نحو ساحة المعركة، لقد كانت تشعر وكأن أولئك الذين قتلوا هناك يسيرون بجانبها.

ثم وكأنما بسبب تدفق المشاعر في أعماقها، همزت جوادها تحثّه على الإنطلاق بأقصى سرعة.

وشعرت بالأرض تهتز تحت حوافر الجواد، وأحست أن بامكانها تفهّم سرّ ذلك الفرح المخيف الذي شعر به أفراد القوات الاسكتلندية وهم ينقضون على الفرنسيين.»

تذكرت ما كانوا قد اخبروها به من أن الجياد، في ذلك الهجوم العنيف كانت شعرت بالحماس ذاته.

لقد قال نابوليون وقتها، وهو يراقب كل ذلك من فوق الرابية: «كيف قاتلت الجياد الاسكتلندية بهذا الشكل.»

ثم تذكرت كيف انقطعت اخبار الجنود الاسكتلنديون عن قاعدتهم وكيف أن آخر مرة شوهد الكولونيل فيها كان

مصاب الذراعين وقد أمسك بلجام فرسه بين أسنانه، كما ان أحد أصدقاء والدها والذي يدعى الكابتن ادوارد كيلي، قتلت ثلاث من جياده وهو يمتطيها، ولكنه بقي حياً. وفي اليوم التالي للمعركة كتب رسالة إلى زوجته أرتها للسيدة فورتنديل وقد قال فيها: «يا حبيبتي وأعز الناس لدي، أفضل جنودي مزقوا إرباً...»

وبشيء من الخجل، جذبت أنتيا اللجام وأخذت تتفحص جوادها.

ثم نظرت إلى الخلف، وإذا بها ترى، وقد تملكها الذعر، أن شيئاً ما قد حدث لغارت، وهي التي كانت تظن أنه يلحق بها، ولكن إذا بها ترى جواده ملقى على الأرض وغارت إلى جانبه، فأسرعت بالعودة إليه...

عندما وصلت إليه، نهض الجواد على قدميه بإجهاد، ووجدت انه لا بد وان انزلقت قدمه في حفرة كانت أحدثتها قنبلة في السابق، فسقط الدوق على رأسه.

وجدته لا يتحرك، فأسرعت بالنزول، تاركة جوادها حراً، لعلمها بأنه من الهدوء بحيث لن يبتعد، ثم اقتربت من غارت.

كان مغمى عليه، وكانت عيناه مغمضتين وقد تلطخ جبينه بالوحل، كما كان تمزّق جلده، وتكهنت أن رأسه اصطدم أثناء سقوطه بحجر. وشعرت فجأة برعب هائل وهي تتساءل بذعر ما بإمكانها فعله.

* * *

عاد غارت الى وعيّه ببطء فأدرك انه يرقد على شيء ناعم، ومن فوق رأسه سمع صوتاً يقول: «هل ستطلب النجدة

أم لا؟ لقد وعدتك بثلاثة جنيهات، ولكنني سأجعلها خمسة إذا أنت أسرعت.»

كانت أنتيا تتكلم بالفرنسية وكان الرجل الذي أجابها يتكلم بلغة محلية من الصعب فهمها، وكان يقول: «سأذهب، ولكنني سآخذ أحد الجوادين لأصل بسرعة.»

فقالت له بجزم: «لن تفعل شيئاً كهذا، كيف لي أن اعلم بأنك ستعود؟»

«عليك ان تثقي بي.»

«لن أثق بك بالنسبة إلى الجواد.»

«وما الذي يمنعني من أخذ أحد الجوادين لو شئت؟»

فقالت أنتيا بهدوء: «أنا سأمنعك.»

ورأى غارت يدها وهي تسحب المسدس الذي كان يحمله معه أثناء أسفاره.

صوبته إلى الرجل، فصرخ قائلاً: «لا بأس يا سيدتي، ولكنك لست امرأة عادية، بل من نساء الأمازون.»

«من الأفضل أن اكون من نساء الأمازون على أن اكون من لصوص المقابر، هيا أسرع بالذهاب إذا كنت تريد النقود.»

ولا بد أن الرجل ذهب، لأن غارت سمع أنتيا تتنهد بارتياح، واستطاع ان يقول بصعوبة: «سنكون قد... ذهبنا قبل... عودته.»

صرخت انتيا: «هل أنت بخير؟ لقد جزعت كثيراً عندما اعتقدت انك ربما كسرت عنقك.»

فقال: «إنني بخير، امنحيني بضعة لحظات، بعدها سأتمكن من امتطاء الجواد للعودة.»

فسألته: «اتظن انه بإمكانك ذلك؟ أظن أن الرجل الذي كنت أتحدث إليه لتوي، يسعده الحصول على خمسة جنيهات.»

فتمتم غارت يقول: «لا اظنه سيساعدنا... ساعديني على... الوقوف.»

ولم يكن الأمر سهلاً، فقد كان يشعر بدوار شديد رغم عدم اعترافه بذلك، واستغرق رفع نفسه للصعود فوق سرج الجواد، الكثير من الجهد.

أخيراً، وبمساعدة أنتيا، تمكن من ذلك، ثم باشرا بالعودة لكن ببطء شديد نحو مدينة بروكسل.

وطالما تساءلت أنتيا فيما بعد، كيف استطاع غارت ان يحتفظ بتوازنه فوق السرج في ذلك الوقت.

كانت تعلم أنه يتألم، وعلمت بعد أن عاينه الطبيب، ان لديه ارتجاجاً في المخ، وهذا ما كانت تتوقعه جيداً.

قال لها الطبيب مطمئناً: «سيكون على ما يرام، يا سيدتي، وذلك بعد يومين أو ثلاثة يمضيها في السرير، ولكن السقطة كانت قوية، ومن حسن حظه أنه لم يصب بأية كسور.»

لقد كان اضطرارهما للتمهل أثناء العودة ليس فقط لأن غارت كان مصاباً، وإنما أيضاً لأن جواده كان يعرج.

وحدثت أنتيا نفسها بأنها هي المذنبة، فقد كان من الجنون الركض بالجواد فوق ساحة المعركة المليئة بالحفر والتي احدثتها مدافع الجيشين المتحاربين.

رأت أنها كانت محظوظة إذ لم يصبها أذى، ولكن كيف بلغت بها الحماقة لأن تعرض غارت للأذى للمرة الثانية؟

فشعرت بالذنب مع الإكتئاب عندما تناولت العشاء بمفردها للمرة الأولى.

وعندما دخلت إلى غرفة غارت لكي تقول له تصبح على خير، كان نائماً، فلم تتمكن من التحدث إليه.

وبعد يومين، كانت حالته قد تحسنت نوعاً ما، ولتخفف من غبائها، قررت أن تظهر له كل البشاشة، فتبعد عنه الضجر والألم من الذي أصابه.

وهكذا اخذت تعرض عليه بعض اللعب التي كانت قد اشترتها من على العربات في السوق.

كان من بينها، دمية بشكل قرد يصعد على عمود ممغنط، واحجية أمضى غارت وقتاً لا بأس به قبل أن يفك رموزها، وبعض الصور المضحكة عن المعركة تظهر ويلينغتون بأنف أشبه بمنقار الطير لكي يتميز وجهه عن وجه نابوليون الشبيه بالطبق المستدير.

قالت له انتيا: «لقد احضرت لك أيضاً طعاماً خاصاً وشهياً.»

جلست إلى جانب سريره وفتحت صندوقاً من الكرتون يحتوي على كعكة حلوى اشتهر بصنعها البلجيكيون.

سألته: هل تريد قطعة منها؟»

أجاب: «كلا.»

فقالت: «حسناً، حيث انني لن احتمل خسارتها، سآكلها بنفسي. فإذا جعلتني بدينة بشكل مقزز للنفس، فأنت الملام.»

فأخذ غارت يراقبها بدهشة وهي تلتهم الحلوى التي كانت طبقاتها الإسفنجية مغطاة بقشدة القهوة.

قالت: «لشد ما كانت ستستمتع بها فيب.»

فقال: «أرجو ألا يكون في نيتك أن نأخذ لها منها عند عودتنا.»

فكرت أنتيا لحظة، ثم قالت: «لا اظن ان مثل هذه الحلوى السريعة العطب تصلح للسفر.»

«أؤكد لك عدم صلاحيتها.»

فقالت: «هذا أمر مؤسف، انها ألذ حلوى تذوقتها في حياتي دون شك.»

أغمض غارت عينيه وكأن منظر هذه الحلوى تجعله يشعر بالغثيان.

سألته بقلق: «اتراني أسبب لك الضجر؟»

أجاب: «كلا، مطلقاً، ولكنني تعبت من المكوث في السرير وأريد ان أتركه غداً.»

فقالت بسرعة: «كلا، كلا، يجب ألا تفعل هذا، فالراحة ضرورية جداً لمن يعاني من ارتجاج المخ، وإلا فإنه سيصبح، كما كانت تقول مربيتي، تشوّش الفكر، تصور عندها الكارثة التي ستصيب غارت اكزمينستر.»

فقال: «لا أظن ذلك سيكون بغاية الأهمية.»

قالت: «بل هو مهم جداً، ماذا سيحدث إذا أنت أصبحت والداً لسلالة نصفها من المجانين؟»

فساد الصمت، وعندما أدركت أنتيا ما تضمنه كلامها من معنى، شعرت بالخجل.

فقال غارت: «هذا يعتمد طبعاً عما إذا كنت حقاً سأنجب سلالة ما، سواء كانت ذكية أم كما قلت نصفها من المجانين.»

قامت انتيا من على الكرسي وسارت نحو النافذة، ثم هتفت: «أنظر. هنالك رجل يحمل آلة موسيقية يدوية وعلى كتفيه قرد يرتدي سترة حمراء. ما أجمل هذا المنظر. ليت شقيقاتي تراه.»

فقال: «من المؤسف انه ليس بامكانك رسم صورة عن كل ما تتمنين أن تراه شقيقاتك.»

أمسكت أنتيا انفاسها، وفكرت للحظة واحدة في أن تخبره بالحقيقة. لكن ماذا سيقول لو أنها أخبرته؟ ولكنها ما لبثت أن أدركت مدى خطورة ذلك إذ لا بد وأنه سيغضب كثيراً، ولن يصفح عنها بعد ذلك أبداً.

فقد أصبحا أثناء هذه الرحلة صديقين إلى حدٍ كبير، ولكن هذا لا يعني أنه لا يعد الأيام إلى أن يصبح بإمكانه العودة إلى اصدقائه.

حدثت نفسها انه متى رجعا إلى انكلترا، سيعود غارت إلى أصدقائه واهتماماته الخاصة، وإن كانا، طبعاً، سيظهران معاً في المناسبات الرسمية، وقد يطلب منها ايضاً استقبال ضيوفه أحياناً، وعدا ذلك...

وتوقفت افكارها عند هذا الحد، وقد شعرت بالإكتئاب.

كانت واثقة تماماً من أن السهولة التي يتحدثان بها معاً الآن، والطريقة التي تجعله يضحك منها، تعود فقط لأنهما في رحلة شهر العسل التقليدية، والتي كان من المستحيل عليه تجنبها.

«ما الذي تفكرين فيه، يا أنتيا؟»

سمعت صوت غارت يخاطبها، فأدركت أنها سكتت لفترة طويلة. فقالت بسرعة: «كنت... كنت أتفرج على القرد.»

فقال: «وتتمنين لو أن اخواتك معك.» فلم تجب، وبعد لحظة قال بابتسامة باهتة: «يجب ان اعترف بأنها المرة الأولى في حياتي التي اجد فيها سيدة تشتاق إلى صحبة شخص آخر عدا زوجها.»

فسألته مذعورة: «اتراني كنت قليلة الأدب؟ انك تعلم أنني سرّرت برفقتك. لقد كانت مفرحة للغاية، كما أُعجبت جداً بكل ما حدثتني به.»

نظرت إليه بقلق وهي تتابع قائلة: «مع انك ربما انزعجت بسردك لما حدث في ساحة المعركة، لكنني كنت مسرورة بوجودي هناك... معك.»

كانت تتكلم بجدية تامة، وللمرة الأولى لم تكن تضحك أو حتى تبتسم.

فقال غارت بصوته العميق: «وأنا أيضاً سررت برفقتك، يا أنتيا.»

سألته: «هل هذا صحيح؟ لقد كنت خائفة جداً من أن أسبب لك الملل، فأنت رجل خبرت أمور الحياة كافة، بينما أنا لا أعرف شيئاً.»

فقال: «ولكنك تفكرين وتشعرين، لقد أدركت عندما كنّا في ساحة المعركة، حيث كنت تفكرين في والدك، أن لديك عمقاً في المشاعر.»

أجابت: «كنت أحب والدي كثيراً، ولكنني لم أكن أفكر فيه فقط، كنت أفكر ايضاً في الرجال الآخرين الذين قتلوا وكيف أن زوجاتهم وأمهاتهم قد بكين كثيراً لفقدانهم.»

«كما قلت لك لتوي، أنت حساسة جداً يا انتيا. وهذا شيء

بالغ في الأهمية، فأكثر النساء لا يشعرن بعاطفة نحو أي شيء.»

أجابت: «ربما هذا صحيح بالنسبة للنساء اللاتي تعرفهن، ولكن عندما قتل والدي، مات جزء من والدتي أيضاً، كانا يحبان بعضهما البعض كثيراً، ولم يكن على المرء إلا أن يراهما معاً، لكي يدرك ما هو الحب.»

فقال غارت: «وهذا ما كنت تتمنين أن تجديه.»

حولت نظراتها عنه، وقالت: «أظن... لكل انسان... احلامه الخاصة.»

فقال: «وقد ضيّعت احلامك بسببي، إنني آسف، يا أنتيا.»

ابتسمت أنتيا، ثم قالت: «ايمكنك أن تتصور كم سيضحك اصدقاؤك إذا سمعوك تعتذر لزواجك من آنسة مجهولة تعيش في مكان مجهول... فتاة لا تتميز بشيء، فتاة عليها أن تشكر الظروف التي اتاحت لها الزواج من دوق حقيقي؟»

«إذا تحدثت إليّ بهذا الشكل، أقسم انني سأضربك، يا أنتيا.»

فقالت تغيظه: «هذا إذا استطعت الإمساك بي. وهذا أمر يصعب عليك قبل أن تشفى من الجروح التي اصابتك في ساحة معركة واترلو.»

عندها، وقبل ان يجيبها، هربت من الغرفة تاركة إياه يضحك بشيء من الضعف محاولاً أن يجد جواباً يتفوق على بديهتها الحاضرة.

كان يعلم جيداً أن أنتيا تبذل جهدها للترفيه عنه، فهو عادة لو اضطر إلى اللجوء الى السرير وذلك عندما يصاب

بصداع مستمر، كان يكره كل لحظة من هذا السجن الذي ارغم عليه.

ولكن انتيا توصلت إلى تسليته بكل ما تملكه من قدرات، لدرجة انه اصبح ينتظر عودتها إليه بصبر فارغ وبعينين مسمرتين على الباب.

بسبب الاصابة في رأسه، ولأنه كان يتألم أحياناً بشكل لا يحتمل، مدد غارت الاقامة في بروكسل فترة أطول.

ولم يجعله يرضخ لإرشادات الطبيب في البقاء أكثر إلا إصرار انتيا على رفض الرحيل قبل أن يسمح الطبيب بذلك، ما جعلهما يمددان إقامتهما أسبوعاً كاملاً.

واخيراً، غادرا إلى انكلترا، وقد ازدادت امتعتهما بشكل واضح، وذلك لعدد الهدايا التي ابتاعتها أنتيا لأفراد أسرتها.

كانت سألته انتيا قبل ان يعودا: «هل أنت حقاً غني جداً؟»

أجاب: «لن اجيبك على هذا السؤال إلا بعد أن اعرف ما الذي تنوين شراءه.»

كان أول ما تريد شراءه، هو زي قروي كانت تعلم أنه يلائم فيب وسيسرها جداً اقتناؤه.

والثاني، ثوب لتايس وقبعة لركوب الخيل لكلو ورسم ملوّن بديع لوالدتها.

وبعد أن اطمأنت أنه لن يفلس إذا هو اشترى كل هذه الأشياء لأسرتها، سألها: «وماذا عن نفسك؟»

فحملقت فيه تسأله: «أنا؟ أنا لا أريد شيئاً، فلدي كل هذه الملابس الرائعة، انها في الواقع كثيرة العدد إلى حد أخشى معه أن تصبح يوماً قديمة الطراز قبل ان اتمكن من ارتدائها.»

قال: «إنها تناسبك بكل تأكيد، انك تبدين مختلفة جداً عما كنت عليه في أول ليلة لك في ألماكس.»

فسألته: «هل تتذكر ذلك؟ فأنا لن أنساها أبداً، لقد كرهتك في ذلك الحين.»

فهتف بدهشة: «كرهتني؟»

«نعم، لأنك لم تشأ أن تتحدث معي، وعندما اضطررت لذلك بدا عليك السأم بشكل لا يطاق.»

وكان في لهجتها ما جعل غارت يدرك أنه قد جرح كرامتها في ذلك الحين، فمد يده إليها قائلاً: «من الواضح أنني كنت مقصراً جداً وسيء السلوك.»

قالت: «تصرفك هذا، جعلني اكرهك فعلاً، وهذا كان السبب في...»

سكتت وهي تعض شفتها وقد أدركت انها أوشكت سهواً على أن تخبره بأن ذلك كان السبب الذي دفعها الى رسمه بشكل كاريكاتوري.

كان يراقب تبدّل ملامح وجهها، فقال: «ما الذي كنت تريدين قوله؟»

«كنت أريد أن أقول... إنني كنت مسرورة لأنك لم تعاود التحدث... معي.»

لكنه أدرك انها لم تخبره بالجواب الصحيح، ورغم أن غارت كان قد أقسم بأنه شفي تماماً، فقد كانت أنتيا تشعر بأن الصداع سيعاوده كلما شعر بالتعب.

قال: «لا أريدك أن تدللني بعد الآن، فأنت، وخادمي الخاص، تتصرفان مثل النسوة العجائز، وقد تاه عن ذهنكما، أنني جندي قد تعودت على تحمل الصعاب.»

قالت بمكر: «إنك تكبر في السن، فالذي كان بإمكانك تحمله وأنت شاب، لم يعد سهلاً بعد أن أصبحت متوسطاً في العمر تقريباً.»

كانا يتحدثان في غرفة غارت، وكان هو بعد استئذان الطبيب، قد جلس عند النافذة ليستنشق الهواء الطلق.

قال لها ممازحاً: «أؤكد لك أن صحتي تسمح لي بأن أقوم بضربك كما تستحقين، فقد تلقيت الكفاية من أوامرك وسخريتك مني.»

قالت انتيا تتصنع الذعر: «كلا، كلا، يجب ألا تسرف في قواك، وتذكر كم أنت ضعيف.»

فقال متجهماً: «لا أريدك أن تصفينني بالضعف.»

وتابع يقول: «انك أسيرتي الآن. وأنا سأقرر الآن إن كنت أضربك أم لا.»

التقت عيناها الضاحكتان بعينيه، وفجأة، استدارت أنتيا لتخرج من الغرفة: «اظن... أن وقت... تناول الشاي قد حان.»

وبعد ذلك بيومين غادرا بروكسل ووصلا إلى لندن دون أن يحدث بينهما ما يستحق الذكر حيث انهما أمضيا ليلتهما في كانتربري بدلاً من السفر من دوفر في نفس اليوم، وهكذا وصلا إلى منزلهما في لندن في الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم التالي.

عندما دخلت أنتيا إلى الردهة الرخامية الفخمة، قال لها رئيس الخدم مرحباً: «مرحباً بك في منزلك.»

فسأله غارت: «هل كل شيء على ما يرام؟»

«كل شيء يا سيدي، هنالك الشاي في غرفة المكتبة.»

فقالت أنتيا لغارت: «أظن عليك أن تنال قسطاً من الراحة لأن التعب يبدو جليًا عليك.»

أجاب بجزم: «لا أشعر بشيء من هذا النوع.» ولم يشأ ان يعترف بالصداع الذي يعاني منه، ولكن انتيا ألقت عليه نظرة واحدة، أدرك منها أنها لم تنخدع بكلامه، ثم سارت أمامه.

كانت المكتبة التي تطل على الحديقة، تقع في الجزء الخلفي من المنزل، وكانت هي قد سبق وعلمت ان من عادة غارت الجلوس فيها.

مع أنها كانت تسمى بالمكتبة، إلا أنها كانت في الواقع غرفة جلوس واسعة وجميلة جداً. ووجدتها أنتيا اكثر راحة وأقل تكلفاً من الصالون الكبير في الطابق الأول.

كانت مائدة الشاي تتألق بأوانيها الفضية وعليها عدة انواع من الفطائر والكعك.

بينما أخذ دوركينز يسكب القهوة، سألها غارت بهزل: «هل أنت جائعة حقاً؟»

أجابت بشيء من العتب: «إنه وقت الشاي وفي بيتنا نتناول دوماً الشاي مع الخبز المحمص والزبدة والكعك غير المحلّى، وذلك في فصل الشتاء، وفي الصيف نوع من الفطائر.»

فقال: «لدي إحساس بأنك كنت تأكلين الكثير منه أثناء تحضيرها.»

قالت باسمة: «وهذا هو سبب جوعي الآن.»

تمتم دوركينز: «إذا أردت شيئاً، سيدتي، فما عليك سوى أن تقرعي الجرس.»

أجابت أنتيا: «إنني واثقة من أن لدينا كل شيء.»

فقال رئيس الخدم: «لقد وصل اليكما عدد كبير من الرسائل، وقد وضعتها على المنضدة مع الهدايا التي وصلت بعد سفركما. وبعضها أرسل من يوركشاير.»

قفزت أنتيا واقفة وهي تهتف قائلة: «يوركشاير؟ إنها إذن من عائلتي دون شك.»

وأسرعت إلى الرسائل دون أن تنتظر أن يحضرها دوركينز إليها، ووجدت كما توقعت، واحدة بخط يد والدتها وأخرى بخط تايس.

وهتفت: «ما أجمل هذا. سنعرف الآن إن كانوا تلقوا رسائلي التي أرسلتها إليهن.»

وأخذت الرسالتين وعادت بهما إلى مائدة الشاي بينما وقف غارت، والذي كان قد لحق بها، لينظر إلى كومة الهدايا.

كان سكرتيره قد فتحها ونظمها بترتيب واضعاً بطاقة المرسل في كل واحدة منها.

فقال متذمراً: «مزيد من أطباق المقبلات.»

صرخت أنتيا: «إسمع فقط ما تقوله تايس. إنها مضحكة جداً وهي تصف حفلة الاستقبال، وتقول إنها كانت من دوننا مثل هاملت من دون الأمير. وقد أكلت فيب ست قطع من كعكة الزفاف، فأخذت تشعر بالغثيان طوال طريق العودة إلى البيت.»

ثم تابعت: «إسمع هذا أيضاً... لقد قال كل شخص إنكما أجمل زوجين رآهما في حياته. أما أنت فكنت جميلة حقاً، يا حبيبتي، صدقيني.

كنا جميعا مزهوات بكما. عودا حالاً، فنحن بشوق إليكما ونريد أن نسمع كل أخبار شهر العسل.

وتقبلي حبنا جميعاً.

أختك الحنون، تايس.

ملاحظة:

كانت أنتيا على وشك أن تقرأ الملاحظة لكنها سكتت فجأة. لقد رأت أن تايس كتبت إليها: «وصل المزيد من صورك الكاريكاتورية، ولاعتقادي أنك تحبين رؤيتها، أرسلتها اليك في نفس العلبة التي تحتوي على هدية لك، هي عبارة عن عقد يثير منظره الغثيان، أرسلته ابنة عم لك لم يسبق أن سمع باسمها أحد. إن الصور مضحكة جداً يا أنتيا، وقد أضحكتنا كلو وأنا كثيراً.»

وطوت أنتيا الرسالة بسرعة ووضعتها في جيب ثوبها.

ثم أدركت لأول مرة أن هدايا العرس قد فتحت، وإذ شعرت بخوف مفاجيء، سارت إلى حيث كان غارت واقفاً عند المنضدة.

وعندما وصلت إليه أمسك برسالة كان يقرأها ثم قال بصوت غريب: «ربما بإمكانك تفسير هذه.»

وإذ رأت أنتيا ما هو مكتوب في اعلى الرسالة، جمدت مكانها دون حراك.

وبحركة آلية دون أن تدري ماذا تفعل، أخذتها منه وقد بدا أن الكلمات تتوهج أمام عينيها.

عزيزتي الآنسة ديل.

أرسل إليك هنا نسخاً من صورك الكاريكاتورية الثمانية

الباقية التي كنا نشرناها كلها معاً بعد أن اشتد الطلب على الصورتين السابقتين.

سيهمك أن تعرفي ان صورة القطط بيع منها حتى الآن أكثر من ثلاثمائة نسخة. أرجو أن يصلنا منك المزيد في أسرع وقت ممكن.»

مع الاحترام.

أنّا همفري.

رفعت أنتيا بصرها إلى غارت، وإذ رأت ما ارتسم على ملامحه، أطلقت صرخة خافتة.

اشتدت قبضتها على الرسالة، ثم استدارت هاربة من الغرفة بذعر وقد انتابها خوف لم تشعر بمثله من قبل.

إلى يوركشاير، ولكنها ستذهب إلى منزل مربيتها العجوز.

لا أحد سيدرك أنها هناك، وبعد أسابيع، وربما شهور، سيكون قد هدأ كل شيء وهي نفسها سيكون في مقدورها مواجهة العاصفة.

وكانت تعلم أن الأمر لن يكون سهلاً، فقد كان التفكير في غضب غارت يبعث فيها الخوف الشديد ولكن ليس غضبه فقط ما كانت تخاف منه.

وعندما اتجهت العربة نحو كامبرتون حيث تعيش مربيتها، ابتدأت تواجه الحقيقة.

كانت خائفة في الواقع مما قد يقوله غارت لها، ولكن أكثر من كل شيء كان أسفها لخسارتها صداقته.

حدثت نفسها بأنها سرت كثيراً بصحبته واستمتعت بالحديث إليه. وما كان أروع من أن تجعله يضحك.

ولكن... هذا ليس كل شيء... فهي تعلم ان الصداقة ليست فقط ما كانت تشعر به نحوه، بل ثمة ما هو أكثر من ذلك بكثير.

وأخيراً، اعترفت لنفسها أثناء مبيتها الليل في فندق صغير حيث أعطي لها غرفة صغيرة على السطح، بأنها تحبه...

كانت الغرفة مختلفة تماماً عن تلك الرفاهية التي عاشتها أثناء شهر العسل.

لقد أمضت ذاك الوقت براحة وتبذير بشكل لم تعرفه يوماً من قبل، ولكنها تعلم الآن، أنّ الراحة المادية ليست ما كانت تطمح إليه بالفعل، بل تلك السعادة المفقودة التي وجدتها برفقة غارت.

وحدثت نفسها قائلة، كم كانت عمياء إذ لم أدرك ذلك من قبل. وعجبت كيف أنها لم تستطع فهم ذلك وهي ترى قلبها يزداد خفقاناً كلما رأته، والسعادة تغمرها وهي تجلس بجانبه إذ يقود العربة، ثم وهي تستمع إلى صوته شارحاً لها أموراً كثيرة كانت تجهلها وتريد معرفتها.

وحدثت نفسها قائلة، لقد فهم شعوري نحو والدي عندما تحدثت عنه في ساحة المعركة. وحاولت إخفاء دموعها في ذلك الحين ولكنه رآها.

فقد قال لها فيما بعد: «إنك حساسة يا أنتيا. وهذا هام جداً، فالكثير من النساء لا يملكن المشاعر العميقة نحو أي شيء.»

سألت نفسها الآن عما كان يعنيه عندما قال إن ذلك هام جداً، هام لمن؟

مع أنه وجد شهر العسل أقل ضجراً مما كان يتوقع، فهي لم تكن تعني شيئاً في حياته أكثر من زوجة أرغم للزواج منها.

وهمست لنفسها، أحبه... إنني أحبه... وأخذت تبكي بحرارة في الظلام.

لقد كانت التعاسة التي تشعر بها الآن، أسوأ ما مر عليها في حياتها كلها.

كانت عذاباً ويأساً تمنت معه لو أنها لم تذهب إلى لندن قط ولم تتعرف إليه.

وكيف كان بالامكان أن تعلم من أن الحب يكون هكذا، وبأنه ليس بمثل تلك المشاعر الهانئة التي كانت تتحدث

عنها والدتها، بل شيء بالغ في الألم والأسى، خاصة وانها تعلم بأن حبها لن يجد أي تجاوب، ولهذا فهي لن تعرف الابتسام بعد الآن.

* * *

أمضت أنتيا اليوم الثاني بأكمله بالسفر للوصول إلى وورسستر شاير حيث تمكنت من استئجار عربة اوصلتها إلى كمبرتون.

كانت كمبرتون قرية صغيرة، تماماً كما كانت مربيتها تصفها لها، تحتوي على عدد ضئيل من الأكواخ المدهونة باللونين الأبيض والأسود.

وكان فيها فندق قديم يدعى البجعة، وامامه بركة ماء يسبح فيها البجع، ولأجل ذلك سُميَ الفندق بهذا الاسم.

أوقف الحوذي عربته، ورأت أنتيا صبياً صغيراً ينظر إليها بفضول، فسألته عن كوخ إلدربيري.

فأجاب: «إنه في آخر القرية.»

سألته: «هل بإمكانك أن تحمل لي حقيبتي؟ إذا فعلت ذلك فسأعطيك بنسين.»

وافق الصبي، واسمه بيلي كما علمت فيما بعد، وهكذا سارا جنباً إلى جنب.

ورأت أنتيا عدة وجوه تطلّ من نوافذ الأكواخ، تبدي الدهشة ليس فقط لملابسها الأنيقة بل أيضاً لكونها غريبة عن القرية.

سألت الصبي: «أظنك تعرف الآنسة تاكيت.»

فأجاب: «إنني أعرفها جيداً. ولكنها ماتت.»

فهتفت: «هذا غير ممكن، ربما أنت تعني أختها السيدة كوسنت والتي كانت مريضة.»

قال بيلي باصرار: «لقد ماتتا هما الاثنتان، وقد دفنت الآنسة تاكيت منذ أسبوعين.»

فعادت أنتيا تهتف بذعر: «لا أستطيع تصديق ذلك.»

كانت تعلم أن شقيقة مربيتها الأرملة، مريضة جداً وهذا ما دعاها لأن تترك يوركشاير للعناية بها، ولكنها كانت قد كتبت إليهن عدة مرات لتخبرهن بأن شقيقتها أحسن حالاً.

كانت مربيتها قد كتبت إليها تهنئها بزواجها القريب، فردت عليها وهي تشكرها قائلة كم تتمنى لو بإمكانها حضور الزفاف.

ولكن، لقد توفيت، عندما هربت من لندن، فكرت، وكالأطفال تماماً، بأن مربيتها موجودة على الدوام لرعايتها.

لكن أن تعلم بأن مربيتها قد ماتت ولن تتمكن من رؤيتها بعد الآن، لهو شيء محزن لا يحتمل.

وسألت الصبي الصغير بيأس: «ماذا سأفعل الآن؟»

فتطوع بالاجابة قائلاً: «إن السيدة ويلدون وهي جارتها، تملك المفتاح.»

فقالت أنتيا:

«سأذهب إذن إلى الكوخ.»

وعلمت فيما بعد أن القرية بأكملها كانت تتوقع حضورها.

لقد قال لها عمدة القرية: «لقد كانت مربيتك إمرأة كريمة

جداً، لقد كانت قد كتبت إليك رسالة تقول فيها بأنها مريضة وتخبرك أنه إذا حدث شيء لها، فستترك لك ولشقيقاتك الكوخ وجميع محتوياته.»

سكت لحظة ثم أضاف يقول: «كانت مشتتة الذهن قليلاً، ولكن أظنني على صواب إذ أقول إنك الآنسة أنتيا وشقيقاتك هن تايس وكلو وفيب.»

فأجابت: «إنك على صواب تماماً.»

لقد أدركت والعمدة يتابع حديثه، أن المربية لم تتحدث بأمر زواجها، كما أنه لا فكرة لديه عن أنها لم تعد الآنسة فورتنديل.

وشعرت بالارتياح إذ لم يكن متوجباً عليها أن تخبره باسمها الحالي، واغتنمت الفرصة المناسبة لتسحب من إصبعها خاتم الزواج.

وكان العمدة يقول: «إنني واثق من أنك لن تقيمي في كمبرتون، يا آنسة فورتنديل. ولكنه كوخ لا بأس به، فإذا أردت بيعه فأنا واثق من أنني سأجد له شارياً.»

فقالت: «أشكرك. ولكنني سأقيم فيه حالياً وسأنظم أشياء مربيتي.»

قال باسماً: «معك حق، يا آنسة فورتنديل. لا تتعجلي بالأمور، ومن الحكمة دوماً أن ينام المرء بعد أن يكون قد وجد قراره الأخير، مهما كان نوع هذا القرار.»

على كل حال، لم تجد أنتيا الكثير لتنظمه، لقد كانت مربيتها تحب النظام على الدوام عندما كانت تعيش معهم. وهذا ما كان الحال ايضاً في كوخها.

كانت السيدة ويلدون تعتني بهرتي المربية اللتين ما أن

وجدتا أن أنتيا تقيم في الكوخ، حتى عادتا إليه طالبتين طعاماً مرتين يومياً.

كان هذا يعني أن عليها أن تعدّ الطعام رغم ما تشعر به من كآبة. وغالباً ما كانت تفكر في أنها لو كانت وحدها، لجلست تفكر في أحزانها دون أن تهتم بتناول اي شيء من الطعام.

ولكن الهرتين ما كانت لتتسامح معها في الطعام وكانت شكواهما تعلو كلما تأخرت في ذلك.

أخذت تقلب الأرنب الكبير الذي كانت تطهيه وهي تفكر في أنهما أكثر إلحاحاً من أن يحتمل.

وكانت كلما فكرت في غارت، تشعر بطعنة حادة من الحزن في نفسها، وأخذت تتساءل عما إذا كانت ستتخلص يوماً من هذا الحزن الذي يُطبق عليها كثيراً.

تساءلت عما إذا كان يفتقدها، أم لعله في الواقع مسرور للتخلص منها. إنه سيفترض أنها لا بد وأن عادت إلى بيت أسرتها في يوركشاير، وهذا أمر سيريحه من الحرج الذي قد يشعر به عندما يعود إلى لقاء ديلفين مرة أخرى.

وذكرتها عينا الهرة الخضراء بديلفين وكانت لا تفتأ تفكر مرة بعد مرة في تلك الصورة الكاريكاتورية التي رسمتها فسببت كل تلك المشاكل.

وسألت نفسها للمرة الألف: «لماذا فعلت ذلك؟»

عادت إلى مسامعها تلك النبرة الحادة في صوت غارت وهو يناولها رسالة السيدة همفري قائلاً: «ربما بإمكانك أن تفسري هذه.»

وكيف تفسّر؟ كيف بامكانها ان تفسر أي شيء، غير أنه لن يصفح عنها أبداً؟

وتدحرجت دمعة من عينيها على نار الموقد. فمسحت عينيها براحة يدها قائلة لنفسها: ما الفائدة من البكاء؟ إنه فقط يسبب لها صداعاً.

تعالى صوت قرع على الباب، فظنت أنه بيلي وقد أحضر لها بعض الحاجيات من الحانوت الصغير القائم في الطرف الآخر من القرية.

استدارت من الموقد وسارت نحو الباب تفتحه، لتقف مسمرة في مكانها. لم يكن الواقف على العتبة هو بيلي، بل كان غارت نفسه.

نظرت إليه بخوف شديد بينما قال لها: «مساء الخير يا أنتيا.»

كان من المستحيل على أنتيا أن تجد صوتها. ولم تستطع سوى التحديق به.

بعد صمت طويل، قال: «أريد الدخول، ولكنني لا أدري ما قد أفعله بالنسبة إلى هيركلس.»

نظرت أنتيا بعينين ساهمتين لترى حصاناً أسود اللون ربط لجامه إلى وتد بجانب البوابة.

فتحت فاها لتتكلم، ولكن الكلمات لم تخرج وفي تلك اللحظة ظهر بيلي الذي قال باعجاب: «يا له من حصان ممتاز، يا آنسة.»

فقالت له أنتيا بصوت بدا غريباً حتى لها: «هل لك أن... تقود الحصان إلى... السيد كليمنتس... وتطلب منه أن... يضعه في اصطبله، ومن ثم يطعمه؟»

أجاب بيلي بسرور: «سأفعل هذا يا آنسة. هاك ما طلبت مني إحضاره لك.»

وناول أنتيا الكيس الورقي، ثم فك اللجام من الوتد ليسير بالحصان بعد ذلك في الطريق.

قالت أنتيا توضح الأمر لغارت: «لقد كان... كليمنتس سائساً... قبل أن يتقاعد... وحصانك سيكون... معه... في أمان تام.»

ثم دخلت الكوخ ووضعت الكيس الذي أحضره بيلي على المنضدة.

قال غارت:

«أجدك بأتم راحة هنا. إنني واثق من أن مربيتك تعتني بك جيداً.»

«لقد ماتت.... مربيتي.»

اجابته بذلك بصوت مضطرب، فقد كان من الصعب عليها التحدث عن ذلك.

«إنني آسف لذلك، إذن فأنت هنا بمفردك؟»

«نعم.»

ألقت عليه نظرة سريعة ثم عادت تشيح بوجهها عنه. لم تكن قد لاحظت من قبل مدى صغر حجم الكوخ. وحقارته إلا بعد أن دخل غارت اليه.

قال: «لقد قطعت مسافة طويلة على صهوة الحصان ولا أدري إذا كنت سأجد عندك شراباً.»

أجابت: «طبعاً. فلديّ عصير التفاح، أو ربما عندما يعود بيلي سأرسله ليحضر لك شيئاً من الفندق.»

«عصير التفاح يكفي.»

جلس غارت على الكرسي بجانب المائدة بينما أحضرت له زجاجة وكوبا من الخزانة.

ثم عادت إلى الموقد لتقلب الأرنب في القدر مديرة ظهرها إلى غارت.

أخذ يشرب العصير وينظر إليها، ثم قال: «إنني لم أتناول أيضاً أي طعام منذ الظهر.»

فقالت: «ليس لدي ما أقدمه إليك سوى هذا الأرنب. وهو في الحقيقة لأجل الهرتين.»

قال: «أشعر بأنهما أكثر سمنة من اللازم بينما أنت هزيلة، يا أنتيا.»

«إنني... إنني لم أشعر... بالجوع.»

نظر إلى الهرتين اللتين رمقتاه بنظرات شريرة ثم قال بحزم: «إنني أحب لحم الأرنب.»

فأحضرت غطاء كتانياً نظيفاً من أحد الأدراج ثم بسطته فوق المائدة.

بعدها، وضعت أمام غارت شوكة وسكيناً فقال غارت: «إنني أكره تناول الطعام وحدي، ومع أنني أعرف بأن الهرتين ستقبلان دعوتي بسرور، إلا أنني أفضل أن تأكلي أنت معي يا أنتيا.»

وضعت طبقاً آخر وشوكة وسكيناً أمامها دون أن تنظر إليه. كما وضعت أيضاً رغيفاً طازجاً وقالباً من الزبدة على المائدة.

قال: «هذا يبدو حسناً للغاية.»

فقالت: «هنالك أيضاً بعضاً من فاكهة الفراولة والجبن.»

أجاب: «إنني من الجوع بحيث لا أدقق في ما آكل، ففي هذه الحالة، أنتظر لحم الأرنب بفارغ صبر.»

لم يكن هناك أي نوع من الخضار، ولهذا خرجت أنتيا إلى الحديقة وقطعت خسة. كما وجدت عدة حبات من الطماطم الناضجة.

عندما عادت إلى الكوخ، فكرت في أن غارت يبدو في منتهى الارتياح، ولكن حذاءه كان يعلوه الغبار، فتكهنت بأنه مشى شوطاً طويلاً.

وأخيراً استطاعت أن تسأله بينما كان يقطع لنفسه قسماً كبيراً من الرغيف: «كيف عثرت عليّ؟»

«لقد أخبرتني تايس.»

أجفلت أنتيا: «تايس؟ وهل ذهبت... إلى يوركشاير؟»

أجاب: «اعتقدت انك عدت الى عائلتك، ولكنني عندما لم أجدك هناك توخّيت الحذر الشديد.»

«ألم... تخبر... والدتي؟»

أجاب: «لا، بالطبع لا. وعندما أدركت أن ولا واحدة منهن كانت قد سمعت عنك خبراً، إنفردت بتايس جانباً ثم أخبرتها بالحقيقة.»

لم تستطع أنتيا النظر في عينيه.

فالتفكير في غارت وتايس وهما يتحدثان عن الصور الكاركاتورية التي رسمتها، جعلتها تشعر بالخجل اكثر مما كانت تشعر بها قبلا.

وتابع يقول: «كانت تايس هي التي تكهنت بأنك لا بد جئت إلى هنا، وهكذا ترين أنني قطعت مسافات كبيرة في الأيام الماضية.»

أجفلت أنتيا، وهتفت: «ورأسك... ألم تعد تشعر بالصداع مرة أخرى؟»

فقال معترفاً: «أحياناً، ولكن ربما كان ذلك لأنني كنت أجهد نفسي أكثر مما يجب.»

«أنا... أنا... آسفة.»

وحدثت نفسها بأن هذا خطأ ثالث يصدر عنها، وأمر آخر اصبح يبعدها عن غارت. كانت واثقة من أنه ما كان ليجهد نفسه بقطع كل تلك المسافة إلى يوركشاير ومنها إلى وورستسر شاير بعد عودته من أوروبا، لولاها هي.

وعندما أصبح لحم الأرنب جاهزاً، أحضرته إلى المائدة في طبق صيني. كما تذكرت وجود خلّ في الخزانة لأجل السلطة، وكذلك مربى الزبيب الأحمر.

لم تكن مربيتها تسمح بأن يمر فصل من السنة دون أن تصنع مربى من فاكهته الموسمية هذه، حتى أن أنتيا لم تنسى كم كانت تجد تلك المربى لذيذة عندما كانت صغيرة.

قال غارت: «ربما أقول ذلك لأنني جائع جداً، ولكنني لم أذق من قبل لحم أرنب لذيذ كهذا.»

ولأنها ظنت أن اشتراكها معه بالطعام سيسره، وضعت شيئاً منه في طبقها. ولكنها وضعت قسما منه، خلسة عنه، أمام الهرتين اللتين كانتا تدوران حول المائدة بقلق ترجوان غارت وأنتيا، حصتهما من ذلك الطعام.

تناول الدوق قسماً آخر من لحم الأرنب. ثم تعالى طرق على الباب.

فقالت أنتيا: «لا بد أن بيلي قد عاد إليك بشأن حصانك.»

دس غارت يده في جيبه وأخرج منها ملء يده من القطع

المعدنية، فقالت أنتيا: «هل يمكنك أن تعطيه ستة بنسات؟ فقد ساعدني كثيراً.»

«ولماذا ليس شلناً كاملاً؟»

أجابت: «يجب ألا نغيّر من أسعار السوق.»

ولأول مرة خيّل إليه أنه يرى شبه ابتسامة على شفتيها.

أعطت بيلي الستة بنسات وهي تقول له: «هذا كل شيء يا بيلي.»

أجاب: «تصبحين على خير يا آنسة، سأحضر لك في الصباح البيض الطازج.»

كان غارت في تلك الاثناء، قد التهم الكثير من لحم الأرنب بوجه عام، فوضعت القطع القليلة التي لم يتناولها في طبق أمام الباب لأجل الهرتين.

أكل بعد ذلك حبات الفراولة، ثم تناول الجبن الذي كانت أنتيا قد صنعته من الحليب والذي لا تحتاج إليه الهرتان.

ثم رفعت الأطباق إلى المطبخ، وعندما عادت كان غارت يقتطع لنفسه جزءاً آخر من الرغيف، فقالت تعتذر: «آسفة إذ لا أستطيع أن أقدم إليك وجبة كافية، ولكنك دون شك ستجد طعاماً كافياً في الفندق أو في أي مكان آخر تنوي المبيت فيه هذه الليلة.»

أنهى غارت الجبن قبل أن يرد عليها قائلاً: «أظن من القسوة البالغة أن آخذ الحصان إلى أبعد من هذا المكان، وبصراحة، أنا تعب جداً.»

سألته: «لماذا لم تقطع تلك المسافة ببطء أكثر؟ إنك تعلم ما قاله لك الطبيب من أن تحاذر بالاسراف في الجهد والسرعة في العمل.»

قال غارت بشيء من التهكم: «لديّ شعور بأن هذه هي الطريقة التي كانت مربيتك ستتحدث بها معي لو كانت هنا.»

«كان بإمكانها، على الأقل، أن تجعلك تتصرف بتعقل.»

أجاب: «إذا كان عليّ أن أكون متعقلاً، عليّ إذن أن أرفض متابعة السير إلى أيّ مكان.»

نظر في أنحاء الغرفة الصغيرة ثم أضاف قائلاً: «لا أمانع في النوم على الأرض. لقد سبق ورقدت في أمكنة أسوأ بكثير عندما كنا نحارب في البرتغال.»

فقالت بحدة: «هذا اقتراح سخيف وأنت تعلم ذلك، فبإمكاني أن أكون مرتاحة جداً في الكرسي ذي الذراعين، وسأريك أين يمكنك أن تنام.»

وسارت نحو السلم الضيق والذي كان بجانب الباب الخارجي وتبعها غارت فقالت تحذره: «إنتبه إلى رأسك جيداً، حتى أنا نفسي أجد صعوبة في صعود هذا السلم.»

تبعها ممتثلاً لنصحيتها، وفتحت باب الغرفة التي كان فيها نافذتان مربعتان. فحدّق غارت ذاهلا وهو يرى السرير يشغل الغرفة بأكملها.

لأول مرة منذ وصوله، تضحك أنتيا وهي ترى ما بدا على وجهه، وتقول: «إن هذا مدهش، أليس كذلك؟»

فقال: «إنه كذلك في الحقيقة.»

قالت: «كان صهر مربيتي يبلغ من الوزن ما فوق المائة وخمسة وثلاثين كيلو غراماً، وكان دوماً يقول إنه لا يشعر بالراحة في السرير العادي ما جعله يصنع مثل هذا السرير المصنوع من خشب السنديان، كما حشا الفراش بريش الأوز.»

وتابعت أنتيا بعد توقف قليل: «عندما كنا أطفالاً، اعتادت مربيتنا أن تحكي لنا القصص عن هذا السرير، وكيف أن أختها خاطت ملاءتين عريضتين ببعضهما البعض لكي تضع له ملاءة. وهذا الأمر كان ايضاً بالنسبة إلى البطانيات. وقد اعتدنا أن نصفه بالسرير العملاق وعندما رأيته وجدته اسماً على مسمى.»

قال غارت معلقاً: «لا بد أنه سيحل مشكلتنا.»

أجابت: «يحل مشكلتك أنت فقط، على كل حال فأنا لا أعتقد أن في منزلك سريراً بهذا الاتساع.»

فقال موافقاً: «هذا صحيح. ولهذا، كما سبق وقلت لك، سيحل مشكلتنا.»

وعندما نظرت إليه متسائلة، قال: «ليس ثمة من سبب يدعونا لأن ننام في الطابق الأسفل. فإذا نام كل منا في جانب، فسنكون كأننا في بلدين مختلفين، فرنسا وإنكلترا على سبيل المثال، حيث يفصل بيننا قنال المانش.»

بقيت أنتيا صامتة، فقال بعد لحظة: «هذا حل معقول، وغداً، إذا شئت، سأنتقل إلى الفندق أو الى أي مكان تقترحينه. ولكنني لا أستطيع هذه الليلة أن أذهب إلى أي مكان.»

نظر إلى أنتيا متحدياً، وكأنه يتوقع منها أن تجادله، فقالت بعد لحظة: «حسناً... فليكن كما تقول، طالما أن القنال سيفصل بيننا... ولكن يجب أن تعلم، أن من في القرية، يعتبرني غير متزوجة كما وأن اسمي ما يزال الآنسة فورتنديل.»

قال: «إذن، علينا أن نمنحهم شيئاً يتحدثون عنه إلا إذا

أردت أن تعيدي خاتم الزواج إلى اصبعك، بطبيعة الحال.»

ودهشت أنتيا إذ لاحظ هذا، وقالت: «لم يلاحظ العمدة... أنني متزوجة، لأنني وجدت أنه من الصعب... عليّ الكشف... عن شخصيتي.»

قال ساخراً: «إنني واثق من أن العمدة سيطلب منا توضيحاً للأمر بعد هذه الليلة.»

واستدار نحو الباب: «إنني ذاهب إلى الإسطبل فهناك في سرج الجواد موسى للحلاقة وأشياء أخرى.»

لم تتكلم أنتيا فتابع قائلاً: «عندما أعود، أريد أن أغتسل. وحيث أنني لن أتمكن من ذلك إلا في الطابق الأسفل، فأرى يا أنتيا أن تدخلي السرير، وإذا وجدتك نائمة عندما أعود، لن أوقظك.»

قالت بصوت غير واضح: «شكراً... لك.»

شعرت وكأن غارت استلم زمام القيادة ولم يعد بإمكانها سوى الامتثال لما يطلبه منها..

ثم تركها وهو يحني رأسه لكي يتمكن من الخروج من الباب المنخفض، ثم سمعته يهبط السلم بشيء من الحذر.

وعندما سمعت الباب الخارجي يقفل، أسرعت تهبط السلم فتناولت ابريق الماء الحار من على الموقد ووضعته في الحوض في غرفة الغسيل، ثم عادت إلى غرفة النوم.

كان الوقت متأخراً، وفي الخارج كان شفق الغروب ينتشر في الأفق. وسمعت أنتيا حركة الطيور وهي تلجأ إلى أعشاشها، هذا بينما كان شذا الورود يملأ الجوّ.

لم تضيء الشموع كيلا يجذب الضوء الفراشات، ولكنها تركت الستائر مكشوفة. دخلت إلى السرير وهي تحدث

نفسها قائلة، سأتظاهر بالنوم الآن، وفي الصباح سأوضح له كل الأمور.

فقد كان غريباً أن يأكل غارت ويتحدث معها في أمور تافهة، دون أن يتطرق إلى السبب الذي جعلها تهرب من منزله.

وحدثت نفسها بأن تمنعه عن ذلك، هو بسبب ما يشعر به من تعب حالياً.

لكنها كانت عازمة على ألا تدع مثل ذلك يحدث، فقد يكون قد عرّض صحته للخطر بذلك السفر الطويل من يوركشاير. وشعرت بأن هذا أيضاً أمر هي مسؤولة عنه بسبب طيشها وتهورها.

وحدثت نفسها: ما كان لي أن أهرب.

جلست وهي تشعر بالاضطراب لكثرة الاشياء التي تعتبر أنها مسؤولة عنها.

ومع ذلك، ورغم ما تشعر به، كان من المستحيل لتلك الكتلة من التعاسة التي تجثم في قلبها منذ ان تركت لندن، ان تتلاشى.

إنها الآن مع غارت مرة أخرى. إنه هنا، وها قد عادت تسمع صوته، أروع مما كانت تتذكره.

ولم تجروء على سؤال نفسها عن الذي دعاه إلى ازعاج نفسه باللحاق بها.

أيمكن لأنه كان من الغضب بحيث أراد أن ينفصلا عن بعضهما البعض؟

كانت تعلم أن هذه الفكرة كانت مستقرة في ذهنها طوال الوقت وكانت تخيفها أكثر من أي شيء آخر.

سمعت وقع خطواته في ممر الحديقة. ووصولاً الى الباب، فتحه ومن ثم اقفله، بعدها سمعته يسير في الغرفة السفلى.

وبعد أن اغتسل، سمعته يصعد السلم، ولأنها كانت تشعر بالخجل، فقد أغمضت عينيها عندما فتح باب الغرفة ودخل.

كان يعلم أنها ما زالت مستيقظة، فقال يحدثها: «يبدو انه سرير مريح جداً.»

أجابت: «بما انك... متعب إلى هذا الحد... فأنا واثقة من أنك... ستنام في أي مكان.»

فقال: «إنني لم أعد متعباً كما كنت، كما أنني لم أعد قلقاً عليك، يا أنتيا.»

«هل كنت... قلقاً؟»

«طبعاً كنت كذلك. كيف أمكنك القيام بمثل هذا الأمر، أن تهربي دون أن تخبريني إلى أين؟ إنني لم أعلم بذهابك إلا بعد إعلان دوركينز بأن العشاء جاهز.»

قالت بصوت خافت: «أنا... آسفة.»

«لماذا ذهبت؟»

دهشت أنتيا من هذا السؤال ونظرت إليه غير مصدقة. لكنها اجابت بعد لحظة، متعلثمة: «إ... إنك تعلم... السبب.»

فقال: «لقد ظننت أنني سأغضب، ولكنني قد تفهمت شعورك ذاك. وكنت سأرتاح لو أنك وثقت بي واخبرتني بالحقيقة منذ البداية.»

«لقد... لقد أردت... أن أخبرك... عندما كنا في بروكسل... ولكنني كنت... خائفة.»

«لقد أخبرتني تايس بأنك كنت تحاولين اكتساب بعض المال لأنكم فقراء جداً، وكان عليّ من ناحيتي، أن أدرك ذلك، يا أنتيا.»

كان في صوته شيء من العتب، ما جعل أنتيا تشعر بوهن مفاجيء. لقد كانت تتوقع منه الغضب، توقعت منه أن يطلب منها توضيحاً، ولكن أن يكلمها بمثل هذه الطريقة، فهذا ما لم تتوقعه قط.

حدقت في النافذة أمامها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

«لقد أخبرتني تايس بأن المائة جنيه التي حصلت عليها ثمناً للرسوم مكنتكن جميعاً من أن تحصلوا على أنواع من الطعام لم تذقنها من قبل. وكعادتك الدائمة، يا أنتيا، كنت تفكرين في أسرتك.»

انهمرت الدموع من عيني أنتيا ولكنها لم تمسحها، محدثة نفسها بأنه لن يلاحظ ذلك إذا هي بقيت دون حراك.

وساد صمت قال غارت بعده: «هل أنت تبكين، يا أنتيا؟»

«ك... كلا.»

ولكنه لم يقتنع من جوابها، وبعد لحظة، قال: «أحقاً أنك لا تبكين؟»

كان من المستحيل عليها أن تجيبه، فقال: «لكي أتأكد من ذلك، يجب أن أرى بنفسي فأنا لا أريدك أن تكوني تعيسة.»

صدرت عن أنتيا شهقة باكية ثم رفعت يديها إلى وجهها وأخذت تقول: «أنا... أنا آسفة...»

وتابعت تقول باكية كمن يهذي: «أنا... آسفة... لم أكن أقصد ذلك... أقسم أنني لم أقصد ذلك... لم أكن أريد أن أكون قـ... قليلة الوفاء لديلفين وكذلك لـ.. لك أنت. ولكن هذا ما... حصل وأنا... أشعر بالخجل الشديد... لما... فعلت.»

ولم تستطع أن تقول اكثر من هذا، كل ما استطاعته هو الندم على كل ما كان قد تراكم في نفسها أثناء الاسبوعين الماضيين من تعاسة وكرب.

قال غارت بلطف: «لا بأس. لا بأس.»

ولكنها استمرت تبكي بالرغم منها إذ كانت تشعر بعدم القدرة على التوقف. ثم، عندما خف بكاؤها قليلاً، قال: «لقد انتهى كل شيء ويمكننا أن ننساه تماماً.»

فقالت وهي تجهش بالبكاء: «هذا غير... ممكن. لن يمكننا ذلك. كان من الخطأ أن أضحك من... الحب... ولأنني فعلت... ذلك... اضطررت أنت إلى... الزواج مني.»

قال غارت بهدوء: «أعرف ذلك. ولهذا السبب لدي شيء أريد أن أخبرك به.»

تنبهت أنتيا، وظنت أنها تعرف ما يريد قوله.

قال: «عندما قلّبت الأمر في ذهني، أدركت أنه من حسن حظي الشديد أنك رسمت تلك الصورة الكاريكاتورية.»

ظنت أنتيا أنها لم تسمع جيداً. فرفعت وجهها المبلل بالدمع، ونظرت إليه.

«الأمر بسيط للغاية، يا حبيبتي. لو لم ترسميها لما تزوجنا ولما كنا هنا معاً الآن.»

مرت لحظة كانت أنتيا فيها من الذهول بحيث لم تستطع أن تتنفس، وشعرت بسعادة تفوق الوصف.

وهمست لنفسها بأنه الحب. وهو ما حدثتها عنه والدتها ووجدته الآن أكثر روعة.

ثم همس: «يا حبيبتي، يا حلوتي.»

أجابته: «إنني... أحبك.»

ثم قالت: «ألن... تنام؟»

أجاب: «إنني سعيد إلى حد لا أستطيع معه... النوم!»

«ولكن يجب أن تنام... فقد كان طريق سفرك طويلاً جداً هذا النهار.»

سألها وفي صوته نبرة هزل: «أما زلت تدللينني؟ لا أستطيع أن أصف لك كم افتقدتك عندما لم تكوني موجودة لتجعليننني أنتبه على نفسي.»

«ظننت أنه... سيسرك... الخلاص مني.»

فقال: «أظن أكثر شيء افتقدته، كان ضحكاتك. لم أكن أعلم أن تلك الأيام يمكن أن تكون بهذا الطول والكآبة والخمود.»

«لقد ضحكت... من الحب...»

«وهذا ما لن تفعليه مرة أخرى، يا زوجتي الغالية. سنضحك معا، ولكن لسعادتنا معاً.»

«معاً.»

قال متأملاً: «ان لصوتك من الوقع المميز ما لم أسمعه من امرأة أخرى من قبل.»

تنهدت أنتيا بعمق ثم قالت: «كنت دوماً... أفكر كم سأدخل... السأم إلى نفسك.»

ارتجف صوتها وهي تلفظ الكلمة الأخيرة.

أجاب: «إنني أعرف الآن أنني لم أعرف الحب الحقيقي من قبل.»

هتفت: «كم أنا مسرورة... مسرورة جداً.»

قال: «لقد كانت تايس واثقة من أنك تحبينني، حتى ولو لم تكوني على وعي بذلك.»

فسألته: «تايس؟ ولكن من أين لها أن تعرف ذلك؟»

«ربما وبسبب العلاقة الحميمة التي تربطكن ببعض كأسرة واحدة، جعلت شقيقاتك يعرفنك أكثر مما تعرفين نفسك. وهذا شيء لم أعرفه أنا حيث كنت ولداً وحيداً لأهلي.»

قالت أنتيا:

«لقد كانت تايس على حق. فأنا أحبك حباً يفوق الوصف، فليس في قلبي ولا روحي سواك.»

فقال: «لم يكن لدي فكرة انني قد أجد امرأة مثلك.»

قالت: «سأكون دوماً... كما تريدين بالضبط... وأعدك بألا أرسم ولا صورة واحدة بعد الآن أبداً.»

«ولكنني مصمم تماماً على أن ترسمي.»

سألته غير مصدقة: «أحقاً تريد مني ذلك؟»

فقال: «من الواضح أن لديك موهبة غير عادية لا أريدها أن تذهب هباء.»

فانتظرت لتسمع ما يريد قوله بدهشة شديدة.

«إن ما أراه، وقد كنت أخطط له طوال الوقت الذي كنت أبحث فيه عنك، هو أنك يجب أن تتلقي دروساً من فنان مختص بهذا الفن.»

«ربما موهبتي هي فقط في أن أرسم صوراً كاريكاتورية.»

أجاب: «سنتأكد من الأمر. واقترح أن يتم ذلك برحلة إلى ايطاليا.»

فهتفت تقول: «الى ايطاليا!»

«ذلك، يا حبيبتي الغالية، لأنني حرمت من أن أمضي شهر عسل حقيقي. لقد كنت دوماً أفهم أن شهر العسل هو شهر هام بالنسبة لزوجين.»

وسكت لحظة قبل أن يسألها: «هذا اذا كنت موافقة، يا حبيبتي.»

فهمست: «موافقة.»

«اعلمي انني لن أدعك تهربين مني مرة أخرى.»

«لا أريد أن... أفعل... ذلك مرة أخرى...»

«لا أظن أياً منا يرغب في العودة إلى لندن حالياً. ولهذا اقترح أن نجتاز القنال الحقيقي مرة أخرى لنسافر إلى ايطاليا، دار الفنانين.»

فصرخت: «كم أحب هذا. إنني أحب كل بلد اكون فيه معك... ولكن على الأخص ايطاليا.»

«إنك ستدرسين أعمال ميكيل انجلو في فلورنسا. وقد نجد من يعطيك بعض الدروس هناك قبل أن نزور فينيسيا، ومن ثم نعود إلى البيت عن طريق باريس. هناك في متحف اللوفر بعض الرسوم أريد منك أن تريها بشكل خاص.»

«ما أجمل ما تقول...»

فتابع يقول: «وعندما نعود، أظن ان لديك في منزل اكزمينستر في هامبشاير أشياء كثيرة ستسرك رؤيتها.

ولكنني أعلم الآن أنه كان ينقصه على الدوام شيء علينا أن نقوم به أنا وأنت.»

فسألته: «وما قد يكون؟»

أجاب: «الأسرة، يا زوجتي الرائعة. فهذا ما كان ينقصني، حيث انه ليس لدي مثل تايس وكلو وفيب كي اضحك معهم.»

ونظر في عينيها وهو يسألها: «هل تعطينني بناتٍ رائعات الجمال مثلك، يا جميلتي؟»

أجابت بسعادة: «هذا إذا أنت... أعطيتني... الكثير من الأبناء الذين... يشبهونك تماماً.»

تمت

www.liilas.com
وحده فاضيه